ثنائية السؤال والجواب
في رسائل الجاحظ

إعداد

د. خلود بنت عبد اللطيف الجوهر

الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء

جامعة الإمام مُحمَّد بن سعود الإسلامية

kaalgohar@imamu.edu.sa

ثنائية السؤال والجواب في رسائل الجاحظ

د. خلود بنت عبد اللطيف الجوهر

(قدم للنشر في ١٤/ ٠٧/ ١٤٤١هـ؛ وقبل للنشر في ٠٥/ ٠٨/ ١٤٤١هـ)

المستخلص: لم تنل رسائل الجاحظ نصيبًا وافيًّا من الدرس مثلما نالت كتبه الأخرىٰ، كالبيان والحيوان والبخلاء؛ وهذا ما حفزني لتسليط الضوء علىٰ رسائله، واخترت منها ثنائية السؤال والجواب، وتناولت منها بالدراسة والبحث: الحاسد والمحسود، ومفاخر السودان علىٰ البيضان، والأوطان والبلدان، والشارب والمشروب، وتبين أنَّ السؤال جاء فيها متنوعًا في الرسائل الأربع فتارة سؤال مباشر، وتارة غير مباشر، وتارة جمع بين المباشر وغير المباشر، أما السؤال غير المباشر فقد ورد في صيغة فعل أمر.

ورصدت الدراسة أنَّ السؤال المباشر تأطر بأسماء الاستفهام فحسب، وخلا من الحروف، ولا غرو في ذلك؛ إذ طبيعة الرسالة تفرض ذلك، وليس الاقتصار علىٰ الإجابة بـ (نعم) أو (لا). وفسح له المجالَ رحبًا للتعبير عن أفكاره وثقافته. فليس الجاحظ من أولئك الذين يقفون عند حدود (نعم) أو (لا)، وإنما هو يناقش الآراء ويقارع الرؤىٰ، ويتعمق في الكيفيات.

وظلَّ السائل غائبًا في رسائل الجاحظ، وهذا يدفع إلىٰ تأويلات متباينة، كما زخرت رسائله بعدة أساليب كالقصر والشرط والأمثال والشواهد.

الكلمات المفتاحية: الرسائل، الجاحظ، السؤال والجواب، السؤال المباشر، السؤال غير المباشر.

***

THe Question answer Duality in Al-Jahiz Articles

Dr. kaloud abdullateef al-johar

(Received 09/03/2020; accepted 29/03/2020)

Abstract: Al Jahiz essays (rasāil) have not had their fair share of study as his other books did, such as Kitab al-Bayan wa al-Tabyin (The Book of eloquence and demonstration), Kitab al-Hayawan (Book of the Animals), and Kitab al-Bukhala (Book of Misers). This has been the motive behind highlighting his essays. I have focused on the question-answer duality in the four essays: "The Envious and the Envied", "the Prides of Blacks over Whites", "Homelands and Countries", and "the Drinker and Drinks"**.** The question form turns out to be direct sometimes, indirect other times, and frequently a combination of indirect and indirect, but the indirect question was expressed in the form of imperatives.

The study found out that the direct question was framed by question word markers only, devoid of prepositions, and this is not surprising because the nature of the message dictates this. The questions asked are just yes/no type, giving the speaker ample space to express his ideas and culture. Al-Jahiz does not stop at the yes and no limits, but rather he discusses opinions and debates visions. The questioner remains absent in the essays of al-Jahiz, which leads to various different interpretations, as his essays were full of rhetorical devices such as specifications, conditionals, proverbs and citations.

Keywords: Essays, Al-Jahiz, Question and Answer, Direct Question, Indirect Question.

❊ ❊ ❊

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ نبيينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم، وبعد،،،

فإنَّ القراءة في كتب التراث ضربٌ من ضروب العيش في أكناف القدماء وإنْ صاروا في الأجداث، حينئذ يكون القارئ في أشد الحاجة إلىٰ أرماث[1] قبل ركوب بحر تلك الكتب، ولعمري كيف لو كان المؤلِّف عمرو بن بحر، حقًّا إنَّه ابن بحر حقيقة ومجازًا؛ إذ كتب مصنفات عديدة، وهضم علومًا كثيرة. بل هو صريع الكتب[2] إن صحَّ التعبير.

وبعد الكرِّ والفرِّ في مؤلفات الجاحظ – التي تؤتي أكلها كلّ حين – استوقفني ما كتبه د. محمود الطناحي (ت ١٤١٩هـ) عنه؛ إذ يقول: «قراءة الجاحظ إذا أُخذت بحقّها قادت إلىٰ المكتبة العربية كلها، بفنونها وعلومها المختلفة؛ إذ كان الجاحظ كثير الإلمام بالعلوم العربية، لا يكاد يشذّ عنه منها شيء وبخاصة في (رسائله) التي لم تؤت ما تستحقه من الدرس؛ لأن الناس شغلوا عنها بكتبه الأخرىٰ: البيان والحيوان...»[3]؛ لذا وقع الاختيار علىٰ رسائل الجاحظ، وسأقتصر في هذا البحث علىٰ رسائله ذات الثنائية الجدلية بين السؤال والجواب؛ لأنهل من نمير بيانه، وحسن نظمه وافتتانه.

وتهدف هذه الدراسة إلىٰ تتبع هذه الثنائية الجدلية التي تشكل ظاهرة جاحظية، وترصّدت من خلالها تعميق النظر في تشكلات السؤال، وتفرعات الجواب، وسأتناولها من خلال مقاربة تداولية تراعي النص وسياقاته المختلفة.

وتتألف الدراسة من مبحثين: المبحث الأول أفردته لبلاغة بنية السؤال ووظيفته، أما المبحث الثاني فخصصته لبلاغة الجواب، ثم ختمت بخاتمة ذكرت فيها أبرز النتائج. أسأل الله التوفيق والتسديد.

تمهيد

ليس من اليسير أن يقرأ الإنسان في مؤلفات مَنْ لسانه يزينه التحبير، وكأنَّه علىٰ الجميع أمير[٤]، ولو ثبت في ديوان الرسائل لأضحىٰ نذير شؤم علىٰ الكُتَّاب؛ إذ عدَّ سهل بن هارون (ت ٢١٥هـ) ثبوته سببًا في أفول نجم الكُتَّاب[٥].

إنَّه الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ذو الفنون كما قال الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في ترجمته[٦]، أيُضير الجاحظ أنَّه في أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخَر يقف[٧]، وهو من الثلاث الأنفس في الأمة العربية الذين يحسدنا عليهم ثابت بن قرة (ت ٢٨٨هـ)؟! ألا يكفي ما قيل: «لكلّ زمان جاحظ»[٨]؟!

وقد أشاد القدماء والمحدثون بنفاسة كتبه ورسائله، إلا أنهم انشغلوا بكتبه أكثر فاستخرجوا منها القضايا الفكرية والبلاغية، وتتبعوا طريقته في التأليف والتعبير، وقلّ نظرهم في دراسة رسائله، مع ما تحبل به من فوائد جليلة؛ لذا سأعدل عن كتبه ذات الرياض الزاهرة، فقد أزهر فيها الباحثون؛ لأضع نصب عيني في رسائله ذات الأفنان المثمرة[٩].

ومن قوة ذيوع رسائل الجاحظ وانتشارها في الآفاق أحجم غير واحد عن انتقاده وهجائه، وعدل عن ذلك، قيل لأبي هفان (ت ٢٥٧هـ): «لم لا تهجو الجاحظ، وقد ندّد بك، وأخذ بمخنّقك؟ فقال: أمثلي يخدع عن عقله؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت في ألف سنة»[١٠]، ولا أعلم هل قال أبو هفان هذا قبل أن يكتب الجاحظ رسالته التربيع والتدوير أو بعده؟ أيا كان الأمر فلم يخدع عن عقله؛ مما ينبئ عن وعيه بشأو الجاحظ

ورسائله التي لا تلحق، فرسالة واحدة من رسائله تفوق ألف بيت من الشعر.

الرسالة فن أدبي نثري بدأ مع العصر الجاهلي وتعاظم بناؤه الفني ودوره الفكري في العصور الموالية، بفعل التطورات الاجتماعية والثقافية والسياسية. ويقتضي إيصال المرسل معلومات وخبرات إلىٰ المرسل إليه في عرض مقنع منظم معتدل الطول، وتنقسم رسائله إلىٰ رسائل إخوانية ورسائل ديوانية ورسائل أدبية، وبرع في هذا الفن الجاحظ براعة لا تدانىٰ، فشعَّبه شعبًا كثيرة؛ لذا فالرسالة عنده تؤول إلىٰ مفاخرة أو وصية أو مناظرة أو غير ذلك من الأنواع؛ وفقًا للغرض الذي سيقت من أجله(١١)، فهي تكاد تلتهم سائر الأنظمة الأجناسية(١٢).

كتب الجاحظ ست عشرة رسالة، في مجالات شتَّىٰ، أضاء بعضها بالمرسل إليه(١٣)، وجاءت معظمها غفلاً من ذلك.

وفي تصوري أنَّ الجاحظ وجد في هذا الفن التمثل التطبيقي والصدىٰ الإجرائي لنظريته في الكتابة القائمة علىٰ البيان والإيضاح والمراوحة بين المعاني الجادة واللاهية والعلم الغزير، فضلاً عن الصياغة الأدبية الرفيعة المتخففة من المحسنات البديعية.

***

المبحث الأول
بلاغة السؤال ووظيفته

❋ أولًا: السؤال: مفهومه وقيمته:

اهتمَّ علماء البلاغة بمصطلح (السؤال والجواب)، وقد سمَّاه الحموي (ت ٨٣٧هـ) المراجعة، وعرَّفه بـ: «أن يحكي المتكلم مراجعة في القول، ومحاورة في الحديث بينه، وبين غيره، بأوجز عبارة وأرشق سبك، وألطف معنىٰ، وأسهل لفظ، إما في بيت واحد أو في أبيات»[١٤]، وعرَّف أحمد مطلوب (ت ١٤٣٩هـ) السؤال والجواب في معجمه بقوله: «هو ورود السؤال وجوابه في بيت أو بيتين، وأيضًا حكاية الكلام بـ (قال)، ثم الجواب بـ (قال) أيضًا»[١٥]. والواقع أنَّ السؤال والجواب لا ينحصران في الشعر فحسب، بل يحضران بوفرة في النثر ويتشكلان فيه تشكيلات متنوعة في البناء الأسلوبي والوظيفة البلاغية.

يتضح من خلال ما سبق، أنَّ البلاغة العربية ضيّقت دائرة السؤال والجواب، فقصرته في الشِّعر وقيّدته بمؤشرين أحدهما: لفظي (قال)، والثاني: أسلوبي (الإيجاز). أما في النثر فلم يتطرَّقوا إليهما، ويختلف الأمر في ذلك؛ لتباين الشعر عن النثر، وعدم تقييده بوزن وقافية؛ لذا فالإيجاز ليس مطلبًا من مطالب الجواب في النثر.

وعلىٰ الرغم من التفات البلاغة العربية للعلاقة القائمة بين السؤال والجواب، إلا أنها ركزت عنايتها علىٰ السؤال أو الاستفهام لما لمست فيه من طاقة دلالية وتداولية، وفي هذا الصدد يرىٰ سيبويه (ت ١٨٠هـ) أنّ الاستفهام أن تطلب «من المخاطَبِ أمرًا لم يَسْتقِرَّ عند السائل»[١٦]، وقد فرق العسكري (ت ٣٩٥هـ) بين

السؤال والاستفهام؛ إذ يقول: «الاستفهام: لا يكون إلَّا لِما يجهله المستفهم فيه أو يشكُّ فيه، ويجوز أن يكون السائل يسأل عمَّا يعلم وعمَّا لا يعلم، فالفرق بينها ظاهرٌ. وأدوات السؤال: هل والألف وأم وما ومن وأي وكيف وكم وأين ومتىٰ، والسؤال: هو طلب الإخبار بأداته في الإفهام، فإن قال: ما مذهبك في حدث العالم؟ فهو سؤال؛ لأنه قد أتىٰ بصيغة السؤال، وإن قال: أخبرني عن مذهبك في حدث العالم. فمعناه معنىٰ السؤال ولفظه لفظ الأمر»[١٧]، ورغم محاولة تفريق العسكري بين السؤال والاستفهام، إلا أنّ الملاحظ أنّهما مندغمان فيما بينهما، ولا يكاد يفرق أغلب القدماء بينهما.

وقد آثر د. عيد بلبع لفظة (السؤال) علىٰ (الاستفهام)[١٨]، ورأت بسمة الحاج أنَّ السؤال أشمل من الاستفهام عند الجاحظ، بل هو (أي: الاستفهام) من أغراض السؤال، تقول في ذلك: «ميَّز الجاحظ بين السؤال والاستفهام، فجعل الاستفهام غرضًا من أغراض السؤال ووظيفة من وظائفه المتعددة، وذكر للسؤال أغراضًا أخرىٰ تؤكد سعة هذا المفهوم»[١٩]، وبرهنت علىٰ قولها بقول الجاحظ: «فمنهم من أراد الطّعن، ومنهم من أراد الاستفهام، ومنهم من أحبّ أن يعرف ذلك من جهة الفتيا»[٢٠].

ومهما يكن من أمر فالسؤال والاستفهام شبه مترادفين، إلا أني آثرت لفظة السؤال علىٰ الاستفهام؛ إذ لكلّ سؤال جواب، أما الاستفهام فليس بالضرورة أن يكون له جواب، كما أنَّ السؤال لا يشترط أن يكون بإحدىٰ أدوات الاستفهام، فقد يكون بصيغة فعل أمر: (اكتب، اشرح،...)، أو الإخبار بالفعل الماضي: (سألت...)، أو المضارع: (أسأل...).

إنَّ السؤال جزء من بنية كبرىٰ تتألف من «أربعة أطراف (السائل – المسؤول –

السؤال – الجواب) في ثنائيتين إحداهما قرينة للأخرىٰ:

١ – ثنائية السائل والمسؤول.

٢ – ثنائية السؤال والجواب»[٢١].

ويوسّع النقد الحديث من قيمة السؤال، فالتلقي برمته «ينطوي علىٰ سؤال، لكنه سؤال ينطلق من القارئ إلىٰ النصِّ الذي يتملكه»[٢٢]. ويرىٰ النص أو الأدب عمومًا إجابة عن سؤال حضاري نوعي متشكل في مرحلة الكتابة.

ويرىٰ موريس بلانشو أنَّ ثمة علاقة معقدة بين السؤال والجواب، «ويؤكد أنَّ ما يميز السؤال أساسا هو أنَّه بحث، والبحث دومًا بحث عن الجذور، إنَّه استقصاء وغوص حتَّىٰ الأعماق وحفر في الأسس وتقصٍّ للأصول، وعلىٰ ذلك فهو حركة وانفتاح»[٢٣].

يتبوأ السؤال مكانة عند البعض حتىٰ عدّ من عتاد الحرب، لذا قيل[٢٤]:

وَلَوْ أَنِّي جُعِلْتُ أَمِيْرَ جَيْشٍ ❋ لَمَا قَاتَلْتُ إِلَّا بِالسؤالِ

❋ ثانيًا: بنية السؤال:

السؤال عند الجاحظ هو الحاضر الغائب في كتاباته؛ فقد «كان دائما يجمع بين الفكرة والسؤال، كانت محبة النصوص والأفكار عنده محبة مساءلة رفيقة»[٢٥]، وبالنظر إلىٰ رسائله وبنيتها أجد أنها لم تبن جميعها علىٰ سؤال وجواب، فثمة رسائل هي ردود علىٰ رسائل وردته، منها: (كتاب ذم أخلاق الكتاب)[٢٦]، و(فصل من صدر كتابه في تفضيل البطن علىٰ الظهر)[٢٧]، و(فصل من صدر كتابه في النبل والتنبل وذم الكبر)[٢٨]، أو رسالة ابتدأها لأصحابها ابتداءً، من ذلك: (فصل من صدر رسالته إلىٰ

محمد بن عبد الملك في الجد والهزل)[٢٩]، (فصل من صدر كتابه في المعاد والمعاش)[٣٠].

أما رسائله التي تقوم علىٰ ثنائية السؤال والجواب بصورة جلية، فقليلة، وهي: الحاسد والمحسود، ومفاخر السودان علىٰ البيضان، والأوطان والبلدان، والشارب والمشروب. وهي التي تهم هذه الدراسة.

ثمة عدد من الأسئلة مطروحة علىٰ قارعة طريق تلك الأسئلة التي وردت في تلك الرسائل، وهي: هل السؤال ورد في تلك الرسائل كما جاء من لدن المرسل دون تغييره قيد أنملة أم غيَّر الجاحظ في صيغتها؟ وإذا كان ذلك كذلك فهل يحق للمرسل إليه أن يغيّر ويحور في صيغة السؤال وفقا لما يراه المسؤول بوصفه أعلم من السائل وكأنَّ لسان حاله يقول: «لعمرك ما أدري وإن كنت داريا»[٣١]؟ وهل أورد الجاحظ جميع الأسئلة، ولم يوار أي سؤال أم أنَّه خاتل المرسل إليه والقارئ معًا؟ أليس المرسل صاحب الفضل في إنشاء الرسالة، فلا يحقّ للمرسل إليه التغيير؟ ولم تعددت الأسئلة وتباينت الصيغ في بعض الرسائل دون بعض؟

كما تشترك الرسائل الأربع في أنَّها لم تصرّح باسم السائل (المرسل)، ولا أعلم لم أضرب الجاحظ صفحًا عن التصريح به؟ هل كان ذلك عمدًا منه أو سقط سهوا أو لأنَّ الفكرة أهم من ذكر المرسل؟ أو لأنَّ الجاحظ هو من نسج السؤال، فهو المرسل والمرسل إليه في آن؟ أو لم تصل إلىٰ يد من نسخ هذه الرسائل أو أنَّ النساخ لهم يد في ذلك؟

كلُّ ذلك جائز، ولا سيما أنَّ الجاحظ يُؤثر نسبة الكلام إلىٰ غيره، «وهي طريقة عزيزة عليه، وكثيرًا ما يلجأ إليها، ليس في كتاب الحيوان فحسب، وإنما في سائر كتبه

ورسائله، وهذا يقتضي منا أن نحترس، وألا نسارع إلىٰ الاعتقاد بأنه يؤمن ضرورة بما يعرضه من آراء»[٣٢]، وكأنه يعرض تلك الأفكار عرضًا دون فرضها.

إنَّ قارئ رسائل الجاحظ الأربع يلحظ أن بنية الرسالة قامت علىٰ طرفين: طرف المرسل / السائل وهو غير معلوم، ولم يصرّح به، وطرف المرسل إليه/ المسؤول (الجاحظ)، وهو معلوم بالضرورة. وعلىٰ أية حال، فـ«السؤال حركة»[٣٣]، وفاتحة للقول، ومسوغ له.

وتنقسم بنية السؤال في الرسائل الجاحظية الأربع إلىٰ ثلاثة أضرب:

١- أسئلة مباشرة: وأعني به السؤال الذي تصدر بأداة من أدوات الاستفهام، وهذا الضرب يمثله رسالته (الحاسد والمحسود).

٢- سؤال غير مباشر: وأعني به السؤال الذي لم يتصدر بأداة من أدوات الاستفهام، وإنما أتىٰ بفعل (أكتب لك)، وهذا الضرب يمثله رسالته (مفاخر السودان).

٣- أمشاج من السؤال المباشر وغير المباشر: يمتزج بين أداة الاستفهام وبين فعل الطلب، ويتجلىٰ في رسالته (الأوطان والبلدان)، ورسالته (الشارب والمشروب).

*** ثالثًا: وظيفة السؤال:**

للسؤال وظائف عدة؛ إذ «إن طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب ما، كما يمكن أن يلطف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلىٰ الإقرار

بجواب غير جواب المتكلم. وبإمكان المتكلم كذلك تعميق نقاط الاتفاق مع المخاطب إذا ما كان مقرًّا بما يطرحه عليه من أجوبة»[٣٤].

وربما تتعاظم وظيفة السؤال عند الجاحظ عندما نأخذ في الحسبان أنَّه لا يفصح عن هوية السائل، ولا يعلم المتلقي عنه شيئًا: هل هو شخصية حقيقة أو وهمية متخيّلة؟ وما ملامح هذا السائل؟ ولم أحجم الجاحظ عن تعيينه؟

وسأتناول أضرب السؤال التي صاغها الجاحظ وهي:

الضرب الأول/ سؤال مباشر: وأعني به السؤال الذي تصدر بأداة من أدوات الاستفهام، وهذا الضرب يمثله رسالته (الحاسد والمحسود)؛ إذ استخدم في رسالته أسئلة متعددة الصيغ: (ما، من أين، كيف، بم، لم)، يقول في ذلك: «وهب الله لك السلامة. وأدام لك الكرامة، ورزقك الاستقامة، ورفع عنك الندامة.كتبت إلي - أيدك الله - تسألني عن الحسد ما هو؟ ومن أين هو؟ وما دليله وأفعاله؟ وكيف تعرف أموره وأحواله، وبم يعرف ظاهره ومكتومه، وكيف يعلم مجهوله ومعلومه، ولم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء وقل في البعداء؟ وكيف دبَّ في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خصّ به الجيران من بين أهل جميع الأوطان»[٣٥].

استهلَّ الرسالة بدعاء يتناغم مع موضوع الرسالة، لقد صدر الجاحظ رسالته بالدعاء لمن أرسل إليه في أربعة أمور، فبدأها بالسلامة، وانتهىٰ بالدعاء له، أن يرفع الله عنه الندامة، وبينهما دعاء له بالكرامة والاستقامة.

وهناك وشيجة بين الدعاء الذي في صدر الرسالة والذي في نهايتها، فعندما قارب علىٰ الانتهاء ذكر: «وما أرىٰ السلامة إلا في قطع الحاسد...»[٣٦]، والندامة وردت في

تضاعيف الرسالة؛ إذ يقول: «وأصبح عليه نادمًا صارخًا»[٣٧]، فالدعاء في صدر الرسالة – وإن كان المخاطب مجهولاً ولم يصرّح به الجاحظ – إلا أنه أتىٰ منسجمًا مع ما جاء في تضاعيف الرسالة ونهايتها.

وأتىٰ بعد الدعاء سيلٌ من أدوات الاستفهام لمعرفة كُنه المستفهم عنه (الحسد)، إنَّ الوقوف علىٰ معاني أدوات الاستفهام «في كثير من صورها سوانح خفية أشبه بالأسرار الغامضة، تجري في النفس جريانًا خفيا، تحسها ولا تستطيع وصفها»[٣٨]، وبعد التأمل في معاني تلك الأدوات يتجلىٰ أنَّ الجاحظ كرَّر استخدام (لم) مرتين، و(كيف) ثلاث مرات، متعجبًا ومستبعدًا في آن من شيوعه بين فئة يظن بها الظن الجميل دون أخرىٰ؛ لما يحملون من صفات تبعدهم من دائرة الحسد، مستنكرًا من ذيوعه رغم مكانة تلك الفئة من حيث: (العلم، الرحم، الصلاح، الجوار)، وما يحملونه من صفات نقيضة لأضدادهم.

العلماء	الأقرباء	الصالحين	الجيران
العلم	الود	الصلاح	الإحسان

أسئلة تدعو إلىٰ التعجب والتفكير والبحث عن علَّة ذلك؛ لاستبعاد المرء وجود الحسد فيمن يتسم بتلك السمات والأوصاف.

ويحضر هنا السؤال الآتي: هل صيغت تلك الاستفهامات كما وردت في كتاب ذلك السائل عندما قال: «كتبت إلي»[٣٩]؟ هل غيَّر الجاحظ في طرائق الأسئلة أو قدَّم أو أخرَّ حسب الأهمية؟ وهل ذلك الشخص له وجود في مخيلة الكاتب افترضه وافترض معه تلك الأسئلة؟ هل ألَّف هذه الرسالة لوزير المتوكل كما ألف رسالته (فصل ما بين العدواة والحسد)، يقول محقق الرسائل في مقدمة رسالته السابقة: «وهذه الرسالة

التاسعة من رسائل الجاحظ، وعنوانها (فصل ما بين العدواة والحسد)...، ويبدو أنه ألَّف هذه الرسالة لأبي الحسن عبيد الله بن يحيىٰ ابن خاقان، وزير المتوكل ثم المعتمد، كما تدلّ عليه أواخر هذه الرسالة...»[٤٠].

إنَّ الأسئلة في قوله السابق: «ولم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء وقلّ في البعداء؟ كيف دبّ في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟...، وكيف خصّ به الجيران من بين أهل جميع الأوطان؟»[٤١]. تتشح بالمفارقة والاستنكار، ويتطلب من المسؤول التعليل والتبرير؛ إذ «تتم المطالبة بالحجة، وببناء الموقف وتعليله. إنَّه سؤال لا يستدعي الحكم فقط، بل يستدعي دعائمه ويستوضح الأسس التي قادت إليه. وبذلك فسؤال التبرير اختبار وقياس للحدود الإقناعية للموقف المتبنىٰ»[٤٢].

ويتضح من صيغة الأسئلة أنَّه بنىٰ سؤالين علىٰ (أفعل التفضيل/ أكثر، أقل)، واستخدام هذه الصيغة يفيد معنيين: الزيادة علىٰ المضاف إليهم في الخصلة، وهم فيها شركاء، والثاني: الإطلاق[٤٣]، بينما السؤالان وإن لم يستخدم فيهما (أفعل التفضيل)، ولكنهما تشيان به، مستخدما في أحدهما المقابلة: «ولم كثر في الأقرباء وقلّ في البعداء؟»[٤٤]، والثانية «وكيف خصَّ به الجيران من بين أهل جميع الأوطان؟»[٤٥].

وثمّة سؤال يطرح علىٰ أسئلة الجاحظ نفسها: هل هذه الرسالة ثمرة من ثمار تجربة مرَّ بها الجاحظ مع حاسديه الذين اكتوىٰ هو نفسه بنار حسدهم ومرارة حقدهم؟

الضرب الثاني/ سؤال غير مباشر: وتمثله الاستفهامات الضمنية في رسالة (مفاخر السودان علىٰ البيضان) يتَّضح ذلك في قوله: «وذكرت أنك أحببت أن أكتب

لك مفاخر السودان، فقد كتبت لك ما حضرني من مفاخرهم»[٤٦]، أي ما مفاخر السودان؟ وبالرغم من أنَّه سؤال واحد إلا أنَّه يدعو المجيب إلىٰ الإطناب والتفصيل، فهو سؤال مفتوح، آية ذلك الجمع في لفظة: (مفاخر).

إنَّ السؤال في مفاخر السودان علىٰ البيضان أتىٰ علىٰ الضرب الثاني: (بصورة طلب) واحد مضمر: ما ميزة اللون الأسود في الحياة عامة؟ بينما أتىٰ السؤال في الحاسد والمحسود علىٰ هيئة أسئلة، أوسؤال تتولد منه سلسلة من الأسئلة المشتقة منه، كأنه ينشر بالسؤال سعة علمه، مستعرضا كفاءته الثقافية، لا سيما أنَّ ثقافة الجاحظ ليست ثقافة واحدة بل «ثقافة القرون الثلاثة كلّها - رواية وتدوينًا - وهذا شأن الكاتب الكبير، يفتح منفذًا يفضي إلىٰ منافذ، ويشق بابًّا يدلّ علىٰ أبواب»[٤٧]، إنَّ ثقافته ليس «ثقافة عصره بل ثقافات عصره ومثلها خير تمثيل في كتبه الكثيرة المتنوعة»[٤٨]، ربما يكون سؤاله سؤال العصر، فيلجأ إلىٰ السؤال بغية التعبير عن عصره وزمنه.

الضرب الثالث/ سؤال جمع بين المباشر وغير المباشر: يتجلَّىٰ ذلك في رسالته (فصل من صدر كتابه في الأوطان والبلدان)، حيث قال: «سألت - أبقاك الله - أن أكتب لك كتابًا في تفاضل البلدان، وكيف قناعة النفس بالأوطان، وما في لزومها من الفشل والنقص...، وقلت: ابدأ لي بالشام ومصر، وفضل ما بينهما، وتحصيل جمالهما، وذكرت أن ذلك سيجر العراق والحجاز...، وقلتم: خبرونا عن الخصال التي بانت بها قريش عن جميع الناس»[٤٩].

لم يأت السؤال في رسالته (في الأوطان والبلدان) في مفتتح الرسالة، بل تقدّمه دعاء للسائل: «زيَّنك الله بالتقوىٰ وكفاك المهم من أمر الآخرة والأولىٰ، وأثلج

صدرك باليقين، وأعزَّك بالقناعة، وختم لك بالسعادة، وجعلك من الشاكرين»[٥٠].

وسيبقىٰ الدعاء ملازمًا للرسالة عن طريق الجمل الاعتراضية (أبقاك الله). ودلَّ الدعاء علىٰ علاقة التقدير الخاصة التي تربط المسؤول بالسائل، كما تضمن صفات اليقين والقناعة والسعادة والشكر التي تتصل بمضمون الرسالة، علىٰ سبيل براعة الاستهلال.

وثمة رابط بين الدعاء وبين سؤال السائل؛ إذ يدعو له بالقناعة، وفي تضاعيف سؤاله عن كيفية قناعة النفس، يقول: «أعزك بالقناعة...، سألت - أبقاك الله - أن أكتب لك كتابًا في تفاضل البلدان، وكيف قناعة النفس بالأوطان»[٥١].

وبعد هذه التوطئة الدعائية، خصص الجاحظ فقرة لسؤال السائل: «سألت - أبقاك الله - أن أكتب لك كتابًا في تفاضل البلدان وكيف قناعة النفس بالأوطان وما في لزومها من الفشل والنقص وما في الطلب من علم التجارب والعقل. وذكرت أنَّ طول المقام من أسباب الفقر كما أنَّ الحركة من أسباب اليسر وذكرت قول القائل: الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم»[٥٢].

وفي هذه الفقرة، أتىٰ السؤال بفعل الطلب حول حقيقة تفاضل البلدان، وكيفية قناعة الأنفس بها، وما يترتب عن كل ذلك من فشل وعلم. ويلحظ أنَّ الجاحظ أضاف سؤالاً آخر للسائل في بداية الفصل الذي اقتصره علىٰ قريش، يقول: «وقلتم: خبرونا عن الخصال التي بانت بها قريش عن جميع الناس»[٥٣].

وقد قوّىٰ السائل مطلوبه بتوجيهين:

١- أحدهما: معرفي يرتبط بأن طول المقام من أسباب الفقر.

٢- ثانيهما: منهجي يتصل بما يجب أن يقدمه الحاجظ ويؤخره. يقول السائل:

«وقلت: ابدأ لي بالشام ومصر وفضل ما بينهما وتحصيل جمالهما وذكرت أن ذلك سيجر العراق والحجاز والنجود والأغوار وذكر القرىٰ والأمصار والبراري والبحار»[٥٤].

والملاحظ أنَّ المقطع التساؤلي من الرسالة، قام علىٰ جملة من الخصائص الصريحة والضمنية المستفادة:

١- تقدير السائل، بالدعاء له.

٢- تلخيص سؤاله بتركيز، تمهيدًا للإجابة عن متطلباته الجزئية.

٣- الإشارة إلىٰ ثقافته وذكائه. ويظهر في دقَّة أسئلته، وحدود توجيهاته.

فالفكرة التي يعالجها الجاحظ في أحشائها أفكار من الدرِّ كامن؛ لذا فإنَّ «قراءة الجاحظ فوق أنها تمتع الوجدان، تحرك العقل، وتفتح أبوابًا من النظر، وتستثير دفائن من الفكر»[٥٥].

كأنَّ الرسالة موازنة بين لونين، وموازنة بين ثقافتين، اللون هنا - في تصوّر الجاحظ - يرمز إلىٰ توجه ثقافي وصورة ثقافية، فالأسود يرمز إلىٰ قوة البنية والتعب، أما الأبيض فيرمز إلىٰ النقاء والفطنة، فالسؤال كان مغايرًا؛ إذ الأصل أن يذكر مفاخر البيضان.

وإذا صحب القارئ أثناء قراءة هذه الرسالة لون الجاحظ وأصله وما قيل في ذلك، ومنه أنَّ الجاحظ[٥٦] كان «أسود اللون كجدّه فزارة، قصيرًا، دميمًا، جاحظ العينين، قبيح المنظر. إلىٰ أن قيل فيه:

لو يُمسَخُ الخِنزيرُ مَسْخًا ثانيًا * ما كانَ إلاَّ دونَ قُبحِ الجاحِظِ

وهو نفسه كان يتحدث عن قبحه. فقد روي أنَّ امرأة طلبت منه أن يصطحبها إلىٰ

دكانه أحد الصاغة، فلما وصلت هناك قالت للصائغ: مثل هذا، وانصرفت. فسأل الجاحظ الصائغ، ماذا قد عنت المرأة بقولها ذاك؟ فأجابه بأنها قد طلبت رسم صورة شيطان علىٰ فصّ خاتمها، فاصطحبتك لتمثيل صورته. وهذا ما يؤكّد بشاعة الصورة التي كان عليها»[٥٧]، يتبين مما سبق أنَّ الجاحظ كأنه يلبس قناعًا من زاويتين: الأولىٰ يقنِّع ذاته، فهي أسئلة تنغص عليه حياته وتؤرقه، فهو يتخفىٰ وراء تلك الأسئلة، والزاوية الأخرىٰ أسئلة يتقنَّع فيه جملة من ذوي البشرة السوداء.

فضَّل ابن قتيبة الجاحظ عن باقي المتكلمين، فرأىٰ أنه آخرهم و«أَحْسَنُهُمْ لِلْحُجَّةِ اسْتِثَارَةً»[٥٨] بل إنه يتحدث عن الشيء ونقيضه، وهذا ضرب من ضروب الاقتدار[٥٩]، وأحسب أنَّه مثلما تصالحت الأضداد علىٰ جسده[٦٠]، توافقت في فكره أيضًا، هي حقًّا أضداد لكنها أضداد متصالحة إذا نُظر إلىٰ فكر الجاحظ في مجموعه لا في آحاده.

وقد تساءل د.نادر كاظم عن علَّة إفراد الجاحظ مفاخر السودان برسالة، وذكر من بين جملة تلك الأسئلة: «هل أراد الجاحظ أن يرد عن نفسه أية شبهة باتهامه بالشعوبية، وذلك حين جمع بين العرب والسودان، فقد كان وصف العرب بالسواد من وسائل الشعوبيين للانتقاص من شأن العرب»[٦١]، وينهي د.نادر بسؤالين في غاية الأهمية: «وهل لهذه الرسالة دور في تفجر الزنج في شهر رمضان ٢٥٥هـ، بعد وفاة الجاحظ في محرم من العام ذاته؟ أم إنَّ الغرض منها لم يتجاوز إثبات القدرة الحجاجية والقوة الجدلية عند الجاحظ وذلك بالاستفادة من كل ما حضره من مفاخر السودان؟»[٦٢].

يدلّ اهتمام الجاحظ بمناقشة هذا الموضوع أنَّه كاتب ينصت لنبض مجتمعه؛ إذ

ثمة ثقافة حينئذ تريد إقصاء المهمش، وثمة عنف يحدث، ولو آل الأمر إليه لوضع من يستحق في موضعه بغض النظر عن لونه أو أصله دون إنقاص أو تهميش، ولو قُدِّر المهمش مثلما قدَّره الجاحظ لما حدث ما حدث من ثورة الزنج، فالعنف لا يولد إلا عنفًا مضاعفًا. ثمة استشراف لديه، وكأنه ينذر بما يقع في المجتمع بفعل الإقصاء حتىٰ يحصل توازن، إنَّه «علىٰ كل حال تموج الحرية والحقوق العامة في صدره»[٦٣]. وكأنَّ أسئلة الجاحظ أوجاع مجتمعه شبه الغافية، ولا غرو في ذلك؛ فـ«الجاحظ مهموم بثقافة ومجتمع من خلال التأويل، قلَّ أن يعبر عن فكرة الأزمة تعبيرًا مباشرًا»[٦٤]. فالجاحظ لا يفهم من خلال كتاب واحد، إنما من خلال مجموع كتبه؛ لأنه صاحب رؤية متشعبة.

أما رسالته في الشارب والمشروب، فبدأها بقوله: «سألت - أكرم الله وجهك، وأدام رشدك، ولطاعته توفيقك، حتّىٰ تبلغ من مصالح دينك ودنياك منازل ذوي الألباب، ودرجات أهل الثّواب - أن أكتب لك صفات الشّارب والمشروب وما فيهما من المدح والعيوب»[٦٥]، إنَّ الدعاء يتناسب مع الموضوع الذي هو بصدده، فموضوعه عن الأنبذة والخمر، وهو مما يذهب اللب، ويكون شاربها مغيبًا وكأنه في غيابات الجب، وتذهب بدينه ودنياه، فدعا له بالكرامة، والرشد، والتوفيق، وكانت الرسالة مزيجا بين (سألتَ)، فعل ماض، وفعل مضارع (أن أكتب لك، أميز، أقفك، أعرفك)، ثم استعرض أسئلة السائل، وجمع بينها وبين آرائه المفصلة، من ذلك قوله: «وقلت: وما نصيب الشّيطان، وما حاصل الإنسان؟... وقلت: ومع كل ذلك فهو يلجلج اللسان، ويكثر الهذيان، ويظهر الفضول والأخلاط، ويناوب الكسل بعد النّشاط...»[٦٦].

وتخلل الأسئلة أيضًا ما طلبه السائل من المسؤول بشأن صورة الإجابة وهيئتها، فقال: «وسألت أن أقصد فيٰ ذلك إليٰ الإيجاز والاختصار، وحذف الإكثار»[٦٧].

ويلحظ علىٰ بنية الافتتاح في رسائل الجاحظ أمورٌ أربعة:

الأمر الأول: أنَّ الضمير الموظَّف في رسائل الجاحظ منحصر في نوعين: إما متكلم أو مخاطب، ولم يرد فيها ضمير الغائب، و«ضمير المتكلم أخصّ من ضمير المخاطب وضمير المخاطب أخصّ من ضمير الغائب»[٦٨].

أما الأمر الثاني: فهو أنَّ السؤال كان متصدِّرًا الرسالة، بعد استهلال دعائي من الجاحظ في رسائله الثلاث ماعدا رسالته (الشارب والمشروب) فقد سبق الدعاء الفعل (سألت)، يقول: «سألت - أكرم الله وجهك، وأدام رشدك، ولطاعته توفيقك...- أن أكتب لك صفات الشارب والمشروب وما فيهما من المدح والعيوب...»[٦٩]، وكأنه يبتدر القارئ أنَّ هذه الرسالة أنشئت بسبب سؤال ورده.

والأمر الثالث: هو السجع والتأنق في الألفاظ في صدور رسائل الجاحظ الأربع، وأحيانًا يكثر منه؛ مما حدا بمحقق الرسائل/ عبد السلام هارون أن يعلل في هامش تحقيقه سبب شيوع السجع في رسالته (الشارب والمشروب) بقوله: «هذا السجع الشائع في صدر هذا الكتاب، إنما هو حكاية لقول السائل أما صميم كلام الجاحظ وردِّه علىٰ السائل فهو يبدأ في ص٢٧٣»[٧٠].

وربما فات المحقق أنَّ الجاحظ له «في كتبه أسلوبان، أسلوب أنيق: فيه صناعة وموازنة وسجع...، ويكاد يكون هذا الأسلوب مقصورًا علىٰ مقدّمات كتبه ومطالع فصوله. ثمّ له أسلوب يجري فيه علىٰ السليقة ويعالج به الموضوعات التي يتناولها في متون كتبه»[٧١].

ويرىٰ صالح بن رمضان أيضًا أنَّ السجع أسلوب في صدور الرسائل وخواتيمها للتمييز بينها وبين المتون، وعدَّ الجاحظَ من أبرز الكتاب الذين اعتنوا بالأسجاع في صدور رسائلهم، بل يرىٰ أنَّ ثمة فرقًا واضحًا بين صدور رسائل الجاحظ ومتونها «من ناحية التصنيع اللفظي ندركه حين نخلص من الصدر إلىٰ المتن. ونتابع تحرر الكاتب شيئًا فشيئًا من بعض مظاهر الموازنة الصوتية؛ إذ يتخلص من السجع ويحافظ علىٰ الازدواج، ويعدل عن الجمل القصار الموقَّعة إلىٰ الجمل المركَّبة بما تتضمنه من خصائص النثر المرسل، وهو يعمد في هذه الصدور إلىٰ إعادة ترتيب عناصر الجملة بما يلاءم بنية السجع»[٧٢].

والأمر الرابع: تنطلق الرسائل من أسئلة محورية، والذات حاضرة جدًّا، رسائل أشبه بردة فعله، الرسالة أشبه بمتنفس عن ذاته، في الرسالة تجتمع الذات مع الآخر، أيا كان الآخر، سواء كان نفسه أو شخصًا آخر.

إنَّ الجانب التداولي من السؤال مجهول، حتىٰ نعرفه ونعرف قيمته، إذا كان صاحب سلطة، أو صاحب نحلة. أسئلة تحرِّض علىٰ أسئلة أخرىٰ، ما اسم المرسل؟ وما منزلته؟ وهل له وجود حقيقي؟ وإذا افترضنا أنها أسئلة مفتعلة؟ أليست تلك الأسئلة تعبِّر عن همومه وما يجري في عصره؟ أليست تلك الرسائل ضربًا من الاحتكاك مع الآخر أو ضربًا من أسئلة الذات أو مزيجًا بينهما؟ خاصة أنَّ «كتبه، ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف، فليس هناك جدول من جداول الثقافة في عصره، إلا وتسرّبت منه فروع، ومنعطفات إلىٰ كتابات وتأليفاته»[٧٣]. فالسؤال في الغالب لا يكون بريئًا، إنما يصطبغ برؤية صاحبه، إنها أسئلة تنم عن المرحلة التي يعيشها الجاحظ، فالحسد كان ساريا في عصره. ولاتساع رقعة الدولة العباسية تولّد

فئتان: البيض والسود، وكثر التنقل بين الأوطان والبلدان، وكثرت أصناف المشروب، فالجاحظ يفلسف ويناقش قضايا مرحلته، فهي قضايا حضارية، والسؤال ضرب من ضروب الانخراط في الحياة، ولا غرو في ذلك؛ إذ «السؤال هو رغبة الفكر»[٧٤].

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني
بلاغة الجواب

أدلف من هذا المبحث إلىٰ شقاء السؤال علىٰ حدّ تعبير موريس بلانشو، الذي صرَّح ذات مرة: «الجواب شقاء السؤال»[٧٥]. وقد جاءت أجوبة الجاحظ استجابة لتلك الأسئلة التي عرضها في صدور رسائله، فكيف أجاب الجاحظ عن هذه الأسئلة الصريحة والمضمرة في صدور رسائله؟ وهل أجاب بنفس ترتيب الأسئلة حين تكون الأسئلة متعددة؟ وهل كانت الرسالة برمتها إجابة؟ وهل اتسمت إجابته بالوضوح أو الالتواء؟ وكيف ختم إجابته؟ وما الأساليب التي اتبعها في صياغة إجابته؟

بالقراءة الفاحصة يتبين أنَّ جواب الجاحظ ينهض علىٰ قضايا وأساليب عديدة أهمها:

*** أولًا: العَرْض والاعتراض:**

يمزج الجاحظ في إجابته بين مكونين متضافرين: أحدهما عرض وجهة نظره وتصوره للسؤال، والثاني اعتراضه علىٰ من يخالفه النظر والتصور؛ مما أسس إجابته بثنائية الهدم والبناء.

أ/ العرض:

يؤطر الجاحظ رسائله بأسئلة مفتاحية، وكأنه عقد بين الكاتب والمتلقي؛ إذ يَرِد سؤال السائل في صدر الرسالة في حيز ضيق موازنة بالإجابة، ومن القراءة الأولية لجواب تلك الرسائل أجد أنه لم يجب عن الأسئلة بنفس الترتيب التي جاءت به؛ إذ انبجست من تلك الأسئلة إجابة متفرعة ذات تكوثر[٧٦]، وكانت مختلفة البناء في

رسائله الأربع.

وقد أخذت الإجابة من الجاحظ الحصة الكبرىٰ في رسائله الثلاث موازنة بالسؤال ما عدا رسالته (الشارب والمشروب)، وهو أمر طبعي؛ لأنَّ من طبيعة الإجابة أن تكون مسترسلة ومتشعبة، ومجلبة للأدلة والحجج الداعمة، فكلما اتسعت الإجابة، دلَّت علىٰ اتساع أفق المجيب، وأبانت عن قوته العلمية في المجال المعرفي الذي يسأل عنه.

يجد المتأمل في رسائله الأربع أنَّ عرض الإجابات متباينة، فالإجابة في رسالته (الحاسد والمحسود) مقسمة إلىٰ خمسة فصول: الأول أتىٰ معنونًا (فصل من صدر كتابه في الحاسد والمحسود)، والثاني معنونًا أيضًا: (فصل في حسد الجيران)، والثالث والرابع والخامس اكتفىٰ فقط بقوله: (فصل منه) دون عنوان، ماعدا الرابع فقد حذف كلمة (منه) في العنوان.

بدد الجاحظ التعجب والعلة الواردين في بعض الأسئلة، في قوله: «لم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء وقل في البعداء؟ وكيف دبَّ في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خص به الجيران من بين أهل جميع الأوطان»(٧٧) موضحًا العلة من كثرة الحسد في الأقرباء، وشيوعه في الصالحين أكثر من الفاسقين، واختصاص الجيران به عن البقية فأضحىٰ التعجب قاعًا صفصفًا في جوابه بله وصف الجاحظ الدواء لهذا الداء، وكيفية الاحتراس من هذا البلاء؛ إذ قصر السلامة والسرور والراحة والربح في عدم مصاقبته وقطعه، يقول: «وما أرىٰ السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه، ولا الراحة إلا في صرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته، فإذا فعلت ذلك فكل هنيًّا مريًّا، ونم رضيًّا، وعش في

السُّرور مليًّا»[٧٨].

إنَّ الجاحظ يدرك أنَّ الحاسد موجود لا محالة، فذكر ثلة من النصائح؛ لاقتفاء تلك النصائح والتوجيهات، وختم رسالته بدعاء له وللمرسل إليه، ثم ختمها بالسلام، يقول: «ونحن نسأل الله الجليل أن يصفّي كدر قلوبنا، ويجنّبنا وإياك دناءة الأخلاق، ويرزقنا وإيّاك حسن الألفة والاتّفاق ويحسن توفيقك وتسديدك. والسّلام»[٧٩]. إنه دعاء يتماهىٰ والسؤال والجواب، مصحوبًا بالسجع.

أما رسالته (مفاخر السودان) فالسؤال فيها كان فضفاضًا دون تقييد؛ لذا كانت الإجابة فضفاضة مناسبة له، فهو يرىٰ أنَّ مفاخر السودان كثيرة جدًّا، إذ يذكر ما حضره فحسب، يقول: «وذكرت أنك أحببت أن أكتب لك مفاخر السودان، فقد كتبت لك ما حضرني من مفاخرهم»[٨٠]، إنه يعلي من ثقافة المهمش، ويمنحه التقدير بفسحه المجال للتعبير عن ذاته، بله الافتخار علىٰ غيره.

لا يُظهر الجاحظ انتماءه صراحة، إنما يستعرض ثقافتهم فحسب، والتي بدا من خلالها كالمنتصر لهم، وإذا نقبت في معنىٰ المعنىٰ في جوابه، أجد أنه انتصار مبطّن، وكأنها مرافعة عنهم، يحتشد فيها الأقوال تلو الأقوال التي ذُكرت فيمن اتصف بالسواد سواء من البشر أو من سواه من جماد أو نبات أو حيوان.

وقد جاء في صدر الرسالة قبل سرد السؤال، أنَّ تأخيره الحديثَ عن مفاخر السودان جاء عن قصد منه ووعي بذلك، ولم يفصح عن ذلك. وبعد السؤال، ذكر أنه كتب ما حضره من مفاخرهم، يقول في ذلك: «فقد كتبت لك ما حضرني من مفاخرهم»[٨١]، تشي هذه الجملة في صدر الجواب بزخم معارف الجاحظ، مقتصرًا علىٰ ما حضره، إذ بلغ الجواب صفحات عدة، تربو عن أربعين صفحة، ولا أعلم عن

الجواب أين يقف لو كتب جميع ما يعرفه، ما حضره وما غاب عنه؟!

ويمكن تقسيم جواب الجاحظ إلىٰ جزأين: انبنىٰ الجزء الأول «علىٰ إبراز خصائص طائفة من الأفراد السود متمثلين في حكماء وشعراء وملوك وشهداء ومقاتلين شجعان وغيرهم، وفي الجزء الآخر علىٰ خصائص السواد ومزاياه ومنافعه مما يفضي قياسًا علىٰ ذلك إلىٰ نتيجة منطقية مفادها أنَّ للسواد المزايا والمنافع نفسها التي تمتلكها تلك الأشياء والكائنات السوداء»[٨٢].

سرد الجاحظ ما حضره من مفاخر السودان دون تقيد بترتيب زمني، فأجاب عما حضره فحسب، يذكر مفاخرهم كما ترد علىٰ ذهنه عفو الخاطر، فينثال الجواب انثيالاً علىٰ الجاحظ، وقد يورد علمًا من أعلام السودان، ومن ثم يعود إليه مرة أخرىٰ بإطناب، من ذلك شاعرهم الحيقطان؛ إذ ذكر «ومنهم: الحيقطان الشاعر، الذي كان يفضل في رأيه وعقله وهمته...، ومنهم: جليبب الذي تحدث الرواة....، ومنهم: فرج الحجام وكان من أهل العدالة...، وأما الحيقطان فقال قصيدة تحتج بها اليمانية علىٰ قريش ومضر...»[٨٣]، ثم أطنب بذكر القصيدة مفسِّرًا ما ورد في بعض أبياتها.

وقد عدَّ باشا العيادي رسالة (مفاخر السودان علىٰ البيضان) ضربًا من ضروب المناظرة، إنَّها رسالة «انبنت علىٰ أقوال السودانيين وغابت فيها أقوال خصومهم البيضان، أو لعلَّها قُدّرت وبقيت في عداد المسكوت عنه الذي يتجلىٰ في أقوال السودانيين ذاتها»[٨٤]، معللاً هذا الإضمار بأنَّ «حجج البيضان معروفة ومشهورة، وأنَّ الطرافة في الحوار ووجه الإضافة يكمنان في استقصاء الفضل في المفضل عليه المعروف بالنّقص، المشهور بالذَّم، وليس في الفاضل الذي شُهر فضله وذاع حُسنه»[٨٥].

لا يسير جواب الجاحظ في مفاخر السودان علىٰ وتيرة واحدة؛ ففي البدء ذكر

أسماء مَنْ يحملون صفة اشتهروا بها متصدِّرًا بعبارة: (ومنهم)، يقول في ذلك: «لقمان الحكيم منهم...، ومنهم: سعيد بن جبير...، ومنهم بلال الحبشي...، ومنهم: مهجع...»[٨٦]، بعد ذلك يأتي بالأسماء والمفاخر علىٰ لسانهم متصدِّرًا بالفعل الماضي (قالوا) دون نسبة إلىٰ قائل بعينه، ولا أعلم هل السودان قالوا ذلك حقًّا أو أجرىٰ الجاحظ علىٰ لسانهم تلك الأقول متقمصًا شخصياتهم، متشرِّبًا شعورهم؟! علىٰ أية حال فقد لمعت في أقوالهم أعمالهم البيضاء رغم بشرتهم السوداء، فلم يقف اللون عقبة كأداء، من ذلك قوله: «قالوا: ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر...، قالوا: ومنا المغلول وبنوه....، قالوا: ومنا أقلح...»[٨٧]، ولم يأت من الفعل المضارع نحو: (يقولون) أو (يفخرون) إلا مرة واحدة، عندما قال: «وهم أيضًا يفخرون برباح أخي بلال...، ويقولون: ومنا مربح الأشرم، غلام أبي بحر...»[٨٨]، إنَّه يُشيد بهذا المنقول لكل ما هو مأمول من رفعة شأن السودان، وسرد مفاخرهم.

وفي هذا الصدد تساءل محمد مشبال مستنكرًا: «فهل خصال الشرف في السود تؤول إلىٰ بشرتهم السوداء؟ ما العلاقة بين سواد البشرة وبين القيم التي يتسم بها السود؟»[٨٩]. وفي اعتقادي أنَّ الربط بين اللون الأسود والقيم الإيجابية ليس من مغالطات الجاحظ، ولكنه من اعتقادات كثير من الناس الذين يرون في السود قيم الإخلاص وحب العمل والجدية وتقدير الآخر، وعلىٰ هذا الاعتقاد بنىٰ الجاحظ كلامه.

وعدَّ أحد الباحثين أنَّ خطاب الجاحظ عن السودان سيوقع القارئ في أتون الحيرة متسائلاً: هل يحمل هذا الخطاب محمل الجد أو يردَّه إلىٰ السخرية[٩٠]؟! والواقع أننا لا نحمل خطابه عن ثقافة السواد لا علىٰ محمل الجد ولا علىٰ محمل السخرية. فالجاحظ راصد كبير لكل ما يموج في مرحلته، بل قد عرف بتسليطه الضوء

علىٰ الثقافات الهشة والمهمشة التي كانت محط ازدراء أو شكّ، مثل: ثقافة البخل وثقافة الإعاقة وثقافة العوام.

وختم رسالته بقوله: «فهذا جملة ما حضرنا من مفاخر السّودان. وقد قلنا قبل هذا في مفاخر قحطان، وسنقول في فخر عدنان علىٰ قحطان في كثير مما قالوا إن شاء الله»[٩١]، مشيرًا ما ألفه من قبل، مفصحًا لما سيؤلف فيما بعد، ثم أردف أن هذا الكتاب من تأليفه مصحوبا بالدعاء له، ومخبرًا عما يلي هذه الرسالة من رسالة، ومبينًا المرسل إليه، حامدًا لله ومصليًّا علىٰ نبيه ﷺ، يقول: (تم كتاب فخر السودان علىٰ البيضان من تأليف أبي عثمان عمرو بن الجاحظ، بعون الله تعالىٰ وتوفيقه، ومشيئته وتأييده. يتلو إن شاء تعالىٰ رسالة له أيضًا إلىٰ محمد بن عبد الملك في الجد والهزل. والله الموفق للصواب. والحمد لله أولاً وآخرًا، وصلواته علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه)[٩٢].

أما رسالته (الأوطان والبلدان) فقد سار في إجابته من الأهم إلىٰ المهم، واختار الجاحظ طريقة عرض جوابه أن تكون استنباطية تبدأ من العام، وهو ذكر قيمة الأوطان في أنفس أصحابها، ثم استرسل إلىٰ الجزء ببيان خصائص جملة من الأوطان العربية، ولم يتقيد في جوابه بنصّ السؤال، بل يجيب إما بتقديم أو تحوير الصيغة وفق ما يقتضي الأمر، فقال: «وقلت: ابدأ لي بالشام ومصر، وفضل ما بينهما، وتحصيل جمالهما، وذكرت أن ذلك سيجر العراق والحجاز، والنجود والأغوار، وذكر القرىٰ والأمصار، والبراري والبحار. واعلم - أبقاك الله - أنا متىٰ قدمنا ذكر المؤخر وأخرنا ذكر المقدم، فسد النظام وذهبت المراتب. ولست أرىٰ أن أقدم شيئًا من ذكر القرىٰ علىٰ ذكر أم جميع القرىٰ. وأولىٰ الأمور بنا ذكر خصال مكة، ثم خصال المدينة.

ولولا ما يجب من تقديم ما قدم الله وتأخير ما أخر لكان، الغالب علىٰ النفوس ذكر الأوطان وموقعها من قلب الإنسان»[٩٣].

وعندما أطنب عن الوطن طرح إشكالاً علىٰ القارئ لا مناص من مواجهته فيجيب داحضًا ما يعتري السائل من شكّ في أنَّه خالف المنهج الذي يسير عليه، يقول: «ونحن، وإن أطنبنا في ذكر جملة القول في الوطن، وما يعمل في الطبائع، فإنّا لم نذكر خصال بلدة بعينها، فنكون قد خالفنا إلىٰ تقديم المؤخّر وتأخير المقدّم»[٩٤]، تسفر عباراته عن التزامه بما جاء في صدر جوابه.

وقال أيضًا: «قلتم: خبرونا عن الخصال التي بانت بها قريش عن جميع الناس. وأنا أعلم أنك لم ترد هذا، وإنما أردت الخصال التي بانت بها قريش من سائر العرب، كما ذكرنا في الكتاب الأول الخصال التي بانت بها العرب عن العجم؛ لأنَّ قريشًا والعرب قد يستوون في مناقب كثيرة. قد يلفىٰ في العرب الجواد المبر وكذلك الحليم الشجاع، حتىٰ يأتي علىٰ خصال حميدة؛ ولكنا نريد الخصائص التي في قريش دون العرب»[٩٥]. إنَّه يغيّر في الصيغة وكأنه فهم مبتغىٰ السائل ومراده، فإنْ فات السائل أهمية التقديم وإدراكه، لم يفت الجاحظ إعادة صيغة السؤال واستدراكه، يريد السائل أن يبدأ ويعكف بالشام ومصر، ولكن الإجابة فيها نوع من تمحيص السؤال: بدأ بالخصال التي بزَّت بها قريش وأفاض فيها، ثم عرج علىٰ ذكر مكة فأورد الخصال التي بانت بها بنو هاشم دون قريش، وبعدها ذكر المدينة، ثم مصر فالكوفة، ثم أطنب في حديثه عن البصرة، وختم رسالته بالحيرة، وقد ذكرها لمامًا[٩٦].

وذكَّر الجاحظ السائل بما نسيه مصطحبًا هذا التذكير بدعاء؛ وهذا أدعىٰ للقبول، يقول في ذلك: «وذكرت أن طول المقام من أسباب الفقر، كما أن الحركة من

أسباب اليسر، وذكرت قول القائل: (الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم). ونسيت - أبقاك الله - عمل البلدان، وتصرف الأزمان، وآثارهما في الصور والأخلاق، وفي الشمائل والآداب...»[٩٧].

عند حديث الجاحظ عن البصرة يتحدث بـ (نا الدالة علىٰ الفاعلين)، (نا) الدالة علىٰ الافتخار بها والانتماء والولاء لها، من ذلك قوله: «فأمّا **بحرنا** هذا فقد طمّ علىٰ كلّ بحر وأوفىٰ عليه؛ لأنّ كلّ بحر في الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئا إلّا **بحرنا** هذا. الموصول ببحر الهند إلىٰ ما لا تذكر»[٩٨]، وقوله: «وقال بعض **خطبائنا:** نحن أكرم بلادًا، وأوسع سوادًا...»[٩٩]، وقد أطنب الجاحظ في حديثه عنها، ولم يكتف بذلك. كما يؤكد بأسلوب الشرط أنَّه مهما اجتهد أعلم الناس وأنطقهم علىٰ جمع منافع (البطيحة/ البصرة) لما قدر عليها، يقول: «ومن العجب لقوم يعيبون البصرة لقرب البحر والبطيحة ولو اجتهد أعلم النّاس وأنطق النّاس أن يجمع في كتاب واحد منافع هذه البطيحة، وهذه الأجمة، لما قدر عليها»[١٠٠]، ويؤكد بمؤكد آخر، وهو إقراره أنه لم يأل جهدا بغية جمع منافعها، معترفًا بعجزه عن ذلك، يقول في ذلك: «وبحقّ أقول: لقد جهدت جهدي أن أجمع منافع القصب ومرافقه وأجناسه، وجميع تصرّفه وما يجيء منه، فما قدرت عليه حتّىٰ قطعته وأنا معترف بالعجز، مستسلم له»[١٠١]، فأي فخر للبصرة بعد هذا؟!

ولا غرو في إطناب الجاحظ في حديثه عن البصرة وتفضيله لها موازنة بحديثه عن الكوفة؛ فهي مسقط رأسه ومهده، فينازعه قلبه إليها، وحنين المرء دومًا لأوّل بلد يسكنه. وهو الذي ذكر في رسالته (الحنين إلىٰ الأوطان) هذه الوصية: «وقال آخر: احفظ بلدًا رشّحك غذاؤه، وارع حمًىٰ أكنَّك فناؤه. وأولىٰ البلدان بصبابتك إليه بلدٌ رضعت ماءه، وطعمت غذاءه»[١٠٢]. هذا أمر.

أما الأمر الثاني فربما ما دار بين البصرة والكوفة من معارك نحوية، وكلّ يدَّعي وصلاً بمدينته، وأنها هي الأبهىٰ.

ثمة رابطان بين السؤال والجواب في رسالته (الأوطان والبلدان): الأول رابط خفي يربط رسالته؛ إذ اهتم بتقديم المقدم، وتأخير المؤخر، ويتجلىٰ في موطنين: الموطن الأول، يظهر في قوله: «وكفاك المهمّ من أمر الآخرة والأولىٰ»[١٠٣]، هذه الجملة هي الجملة الثانية من صدر رسالته الأوطان؛ إذ قدَّم الأهم عن المهم الآخرة قبل الأولىٰ فأتت بعد قوله: «زيَّنك الله بالتقوىٰ»[١٠٤]، هنا قدَّم الآخرة علىٰ الأولىٰ؛ لأنها أولىٰ بالتقديم، إذ صلح للإنسان أمر الآخرة صلح له دنياه.

أما الموطن الثاني الذي يظهر فيه اهتمام الجاحظ بالتقديم والتأخير، قوله: «واعلم – أبقاك الله – أنّا متىٰ قدّمنا ذكر المؤخّر وأخّرنا ذكر المقدّم، فسد النّظام وذهبت المراتب. ولست أرىٰ أن أقدّم شيئًا من ذكر القرىٰ علىٰ ذكر أمّ جميع القرىٰ. وأولىٰ الأمور بنا ذكر خصال مكّة، ثمّ خصال المدينة. ولولا ما يجب من تقديم ما قدّم الله وتأخير ما أخرّ، لكان الغالب علىٰ النفوس ذكر الأوطان وموقعها من قلب الإنسان»[١٠٥]، بدأ الجاحظ بقاعدة عامة، أشبه ما تكون بنتيجة، ثم أتىٰ بحجة تاريخية، ثم أردفه بحجة وجودية.

متىٰ قدّمنا ذكر المؤخّر وأخّرنا ذكر المقدّم، فسد النّظام وذهبت المراتب	نتيجة
ولست أرىٰ أن أقدّم شيئا من ذكر القرىٰ علىٰ ذكر أمّ جميع القرىٰ. وأولىٰ الأمور بنا ذكر خصال مكّة، ثمّ خصال المدينة.	حجة تاريخية
ولولا ما يجب من تقديم ما قدّم الله وتأخير ما أخرّ، لكان الغالب علىٰ النفوس ذكر الأوطان وموقعها من قلب الإنسان.	حجة وجودية

والرابط الآخر: رابط جلي يربط بين السؤال والجواب؛ إذ إنَّ سؤال الجاحظ «وكيف قناعة النّفس بالأوطان، وما في لزومها من الفشل والنّقص، وما في الطّلب من علم التّجارب والعقل، وذكرت أنّ طول المقام من أسباب الفقر، كما أنَّ الحركة من أسباب اليسر»[١٠٦] – يحمل بين طياته تعجبًا ممزوجًا بشك، التعجب من القناعة بالأوطان رغم أن لزومها مجلبة للفشل والنقص؛ لذا دعا له باليقين في صدر الرسالة: «وأثلج صدرك باليقين»[١٠٧]، و«اليَقِينُ: العِلْم وَإِزَاحَةُ الشَّكِّ وتحقيقُ الأَمر»[١٠٨]، وفي جوابه أتىٰ بلفظ (اليقين) مرتين، قال: «فسبحان من جعل بعض الاختلاف سببًا للائتلاف، وجعل الشك داعية إلىٰ اليقين، وسبحان من عرفنا ما في الحيرة من الذلة، وما في الشك من الوحشة، وما في اليقين من العز، وما في الإخلاص من الأنس»[١٠٩].

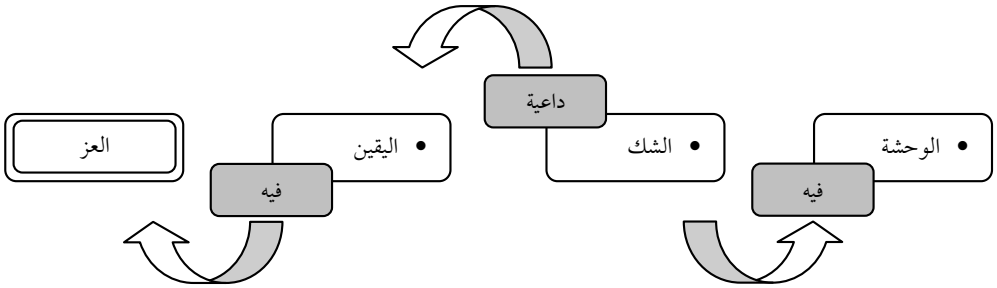

وقد امتد التعجب من السؤال إلىٰ الجواب أيضًا، إذ وردت لفظة (عجب) بتصريفاتها: (عجب، تعجب، أعجوبة، أعجب، أعاجيب، عجائب) في جوابه ما يربو علىٰ أحد عشر موضعًا[١١٠]، من ذلك قوله: «وفي ولد أبي طالب – أيضًا – أعجوبة أخرىٰ، وذلك أنّه لم يوجد قطّ في أطفالهم طفل يحبو، بل يزحف زحفًا لئلا ينكشف منه عن شيء يسوءه. ليكون أوفر لبهائه، وأدلّ علىٰ ما خصّوا به»[١١١]، إنَّ هذا التكرار يتماهىٰ والتعجب الذي يحمله السؤال في صدر الرسالة.

وأتت رسالته (الأوطان والبلدان) غفلاً من الخاتمة؛ إذ يقول: «والحيرة أرض

باردة في الشّتاء، وفي الصّيف ينزعون ستور بيوتهم مخافة إحراق السّمائم لها»[١١٢].

وفي جوابه لرسالته (الشارب والمشروب) يفترض افتراضات واعتراضات علىٰ قوله ومن ثم يجيب عليها، فقد يفترض الاعتراض تارة بأداة الشرط (إنْ)، من ذلك قوله: «فإن قال لنا قائل: ما تدرون، لعلَّ الأنبذة قد دخلت في ذكر تحريم الخمر، ولكن لما كان الابتداء أجري في ذكر تحريم الخمر، خرج التحريم عليها وحدها في ظاهر المخاطبة، ودخل سائر الأشربة في التّحريم بالقصد والإرادة. قلنا: قد علمنا أنَّ ذلك علىٰ خلاف ما ذكر السّائل؛ لأسباب موجودة، وعلل معروفة...»[١١٣].

ويفترض الجاحظ اعتراضًا تارة أخرىٰ بـ(لعلَّ) ثم يجيب عليه، كقوله: «ولعلَّ قائلاً يقول: وأهل مدينة الرسول ﷺ وسكان حرمه ودار هجرته، أبصر بالحلال والحرام، والمسكر والخمر، وما أباح الرّسول وما حظره، وكيف لا يكون كذلك والدّين ومعالمه من عندهم خرج إلىٰ النّاس؛ والوحي عليهم نزل، والنبي ﷺ فيهم دفن. وهم المهاجرون السّابقون، والأنصار المؤثرون علىٰ أنفسهم. وكلّهم مجمع علىٰ تحريم الأنبذة المسكرة، وأنّها كالخمر... وإنّا نقول في ذلك: إنَّ عظم حقّ البلدة لا يحلّ شيئًا ولا يحرّمه، وإنّما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق، والسّنّة المجمع عليها، والعقول الصّحيحة، والمقاييس المصيبة. وبعد، فمن هذا المهاجريّ أو الأنصاريّ، الذي رووا عنه تحريم الأنبذة ثم لم يرووا عنه التحليل؟ بل لو أنصف القائل لعلم أنّ الذين من أهل المدينة حرّموا الأنبذة»[١١٤].

ولا أعلم لم ذكر بصيغة الجمع (لنا/ قلنا، علمنا)؟ هل دلالة علىٰ التفخيم، أو دلالة علىٰ كثرة من يرىٰ رأي الجاحظ في النبيذ أو الاثنين معًا؟!

يبيّن الجاحظ مسوغات ذكره لجميع الأشربة، يقول في ذلك: «والذي دعاني إلىٰ

وضع جميع هذه الأشربة والوقوف علىٰ أجناسها وبلدانها، مخافة أن يقع هذا الكتاب عند بعض من عساه لا يعرف جميعها، ولم يسمع بذكرها، فيتوهّم أنّي في ذكر أجناسها المستشنعة وأنواعها المبتدعة، كالهاذي برقية العقرب، وإن كان قصدي لذكرها في صدر الكتاب لأقف علىٰ حلالها وحرامها، وكيف اختلفت الأمّة فيها، وما سبب اعتراض الشّكّ واستكمان الشّبهة؛ ولأن أحتجّ للمباح وأعطيه حقّه، وأكشف أيضًا عن المحظور فأقسم له قسطه، فأكون قد سلكت بالحرام سبيله، وبالحلال منهجه، اقتداء مني بقول الله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (المائدة:٨٧)»[١١٥].

أما خاتمة رسالته (الشارب والمشروب)، فقد أفصح عن منهجه في الإجابة، قائلاً: «وقد كتبت لك – أكرمك الله – في هذا الكتاب ما فيه الجزاية والكفاية، ولو بسطت القول لوجدته متّسعًا، ولأتاك منه الدّهم. وربّما كان الإقلال في إيجاز أجدىٰ من إكثار يخاف عليه الملل. فخلطت لك جدًّا بهزل، وقرنت لك حجّة بملحة، لتخفّ مؤونة الكتاب علىٰ القارئ، وليزيد ذلك في نشاط المستمع، فجعلت الهزل بعد الجدّ جَمَامًا، والمُلحة بعد الحجّة مُستراحًا»[١١٦]، انماز الجاحظ في خاتمته الآنفة الذكر أنها الخاتمة «ذات الصبغة الحكمية التي يسعىٰ فيها إلىٰ إقناع قارئه بطريقته في الكتابة»[١١٧].

ب/ الاعتراض:

الجاحظ مولع بأسلوب الاعتراض لما يجد فيه من قدرة علىٰ إضافة المعاني الجديدة، فكأن الاعتراض عنده هو كلام آخر متعاضد مع الكلام الأصلي إغناء أو حصرًا، وهذا يدلّ علىٰ المنزع الحواري للجاحظ، يتجلّىٰ ذلك خاصة في رسالته (الأوطان والبلدان)؛ إذ قام الجواب علىٰ الاعتراض؛ فقد اعترض الجاحظ علىٰ

الرأي الذي ذيّل به السائل سؤاله، حينما قال: «سألت - أبقاك الله - أن أكتب لك كتابًا في تفاضل البلدان، وكيف قناعة النّفس بالأوطان»[١١٨]. فاعترض - بطريقة مخففة - عن وجهة نظر السائل القائلة بأنَّ من أسباب الفقر إطالة المقام في بلد واحد، ليدله علىٰ أنَّ الموضوع أوسع مما يتصوره، وفيه جوانب تمس الأجساد والقيم والعواطف، لا المكاسب وحدها. يقول: «ونسيت - أبقاك الله - عمل البلدان وتصرف الأزمان وأثرهما في الصور والأخلاق وفي الشمائل والآداب وفي اللغات والشهوات وفي الهمم والهيئات وفي المكاسب والصناعات علىٰ ما دبَّر الله تعالىٰ من ذلك بالحكمة اللطيفة والتدابير العجيبة. فسبحان من جعل بعض الاختلاف سببًا للائتلاف، وجعل الشكّ داعية إلىٰ اليقين وسبحان من عرفنا ما في الحيرة من الذلة وما في الشك من الوحشة وما في اليقين من العز وما في الإخلاص من الأنس»[١١٩].

وارتفعت درجة الاعتراض عند الجاحظ، أثناء تعقيبه علىٰ التوجيه المنهجي الذي ساقه السائل، الذي فهم منه أن ما ذكره من تقديم للشام ومصر لا يراعي ما أكدَّ عليه من ترتيب منهجي، يقول: «واعلم - أبقاك الله - أنا متىٰ قدمنا ذكر المؤخر وأخرنا ذكر المقدم فسد النظام وذهبت المراتب. ولست أرىٰ أن أقدم شيئًا من ذكر القرىٰ علىٰ ذكر أم جميع القرىٰ. وأولىٰ الأمور بنا ذكر خصال مكة ثم خصال المدينة. ولولا ما يجب من تقديم ما قدم الله وتأخير ما أخر لكان الغالب علىٰ النفوس ذكر الأوطان وموقعها من قلب الإنسان»[١٢٠].

وفي تصوري، أنَّ هذا الاعتراض الثاني من الجاحظ له خصوصية؛ فكأنه اعترض من خلال السائل عن كل من أشار إلىٰ أنَّ طريقة الجاحظ في التأليف موسوعية، ولا تعنىٰ بالبناء المنهجي، وهو ما نبّه عليه القدماء وبالغ فيه المحدثون، فأتىٰ رد

الجاحظ، مبينًا أنَّه علىٰ وعي تام بالمسألة المنهجية في الكتابة.

وهناك اعتراض ثالث، له طبيعة توضيحية، ويوضح فيه المقصود من كلام السائل؛ أي أنَّه لم يقصد تميّز قريش عن باقي البشر، بل عن باقي العرب، يقول مبينًا: «وأنا أعلم أنك لم ترد هذا، وإنما أردت الخصال التي بانت بها قريش من سائر العرب»[١٢١]، وهذا دليل علىٰ دراية الجاحظ بما وراء السؤال، وقصد السائل، وإنْ انحرف السؤال عن مجراه.

بينما في رسائله الثلاث أجاب الجاحظ عن الأسئلة التي أتت في صدر الرسالة دون اعتراض علىٰ أسئلة السائل أو أدنىٰ تغيير في الأسئلة.

❋ ثانيًا: الأساليب:

رصد بعض الدراسين أنَّ الجاحظ نقل من بلاغة الأسلوب إلىٰ بلاغة الحياة[١٢٢]؛ إذ انتقل إلىٰ بلاغة أرحب، وبالرغم من ذلك ظل وفيًّا للأسلوب، وبالأسلوب نعبر إلىٰ هذه الحياة، ومن الأساليب التي لها شيوع في رسائل الجاحظ:

أ/ أسلوب التفضيل:

يعرف اسم التفضيل بأنَّه «ما اشتقّ من فعل لموصوف بزيادة علىٰ غيره، وهو (أفعل)»[١٢٣]، بمعنىٰ أن المفضل والمفضل عليه «وإن اشتركا في المحمول الدلالي نوعا فإنهما اختلفا فيه كما»[١٢٤]، وقد أورد الجاحظ أسلوب التفضيل في رسائله، من ذلك رسالته الحاسد والمحسود، يقول: «أحسن ما تكون عنده حالاً أقل ما تكون مالاً، وأكثر ما تكون عيالاً، وأعظم ما تكون ضلالاً. وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً، وأبعد ما تكون من الناس حمدًا. فإذا كان الأمر علىٰ هذا

فمجاورة الموتىٰ، ومخالطة الزمنىٰ، والاجتنان بالجدران، ومصر المصران، وأكل القردان، أهون من معاشرته، والاتصال بحبله»[١٢٥].

إنَّ الاتكاء علىٰ التفضيل يعزز من دلالات تهويل أمر الحاسد، والإقناع من الفرار منه كفرارك من داء لا بُرء منه، وقد تمكن الجاحظ من خلال توظيفه لأفعل التفضيل من إقناع السائل أن يبتعد عن الحاسد بقدر ما أوتي من قوة، وعبر سلسلة من الموازنات الضدية بين الحاسد والمحسود، فالعلاقة بينهما عكسية؛ إذ يرىٰ أنَّ أحسن حال محسوده في قلة ماله، وكثرة عياله، وعظمة ضلاله، ويكون أفرح إذ حال محسوده قريبًا من المصيبة، بعيدًا عن ثناء الناس عليه.

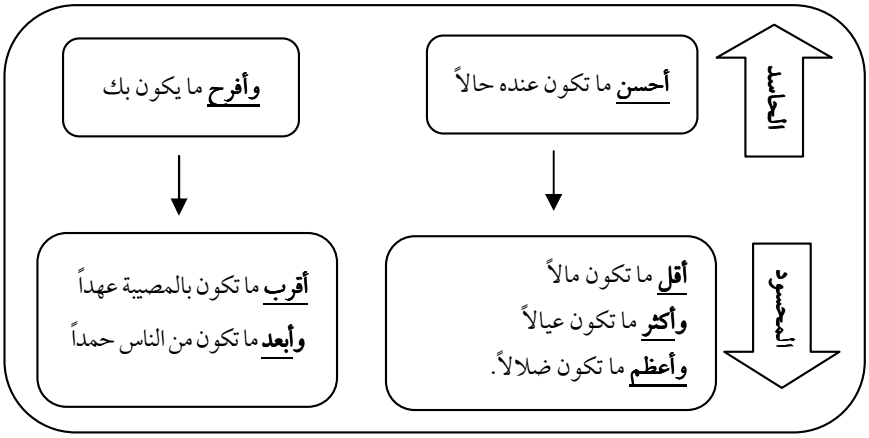

لقد جاء أفعل التفضيل مقرونًا بالسجع: (حالاً، مالاً، عيالاً)، و(عهدًا، حمدًا)، والطباق: (أقل، أكثر)، (أقرب، وأبعد)، وقوله أيضًا: «وربما كان الحسود للمصطنع إليه المعروف أكفر له وأشد احتقادًا، وأكثر تصغيرًا له من أعدائه»[١٢٦].

وفي رسالة فخر السودان علىٰ البيضان، أتىٰ (أفعل التفضيل) علىٰ لسان السودان، بيد أنها من اختيارات الجاحظ:

جاء الجواب مشحونًا بكتلة من أسلوب التفضيل (أفعل)، ولا غرو في ذلك؛ فهذا الأسلوب يتماهىٰ والافتخار الذي ينشده الجاحظ، وبفضل «تواتر صيغة التفضيل وقع استقصاء كل ما هو جميل في الإنسان، وله علاقة باللون الأسود وتقديمه بتدرج فني محكوم بثنائيّتين:

- العام والخاص: الإنسان، الشعر، الحدقتان، الكبد، القلب الشفتان.
- الخارج والداخل: (الإنسان، الشعر، الحدقتان، الشفتان)/ الكبد، القلب»[١٢٧].

وورد في رسالته الأوطان والبلدان، علىٰ لسان أهل الكوفة مزاعمهم في ذم البصرة عن طريق توظيف (أفعل) التفضيل: «زعم أهل الكوفة أنَّ البصرة أسرع

الأرض خرابًا، وأخبثها ترابًا، وأبعدها من السماء وأسرعها غرقًا»[١٢٨]، فانبرىٰ الجاحظ يرد تلك المزاعم بنفس أسلوب التفضيل (أفعل)، يقول: «وليس نهر من الأنهار التي تصب في دجلة إلا هو أعظم وأكبر وأعرض من موضع الجسر من نهر الكوفة...، فإما نهرهم فالنيل أكبر منه، وأكثر ماءً، وأدوم جرية...، وهم أشد بغضًا لأهل البصرة من أهل البصرة لهم»[١٢٩]، وأهل البصرة هم أحسن جوارًا وأقل بذخًا، وأقل فخرًا»[١٣٠]، وفي مدح البصرة يتجلىٰ من أفعل التفضيل أن الأعلم والأنطق لا يقدر علىٰ جمع منافعها، يقول: «ولو اجتهد أعلم الناس وأنطق الناس أن يجمع في كتاب واحد منافع هذه البطيحة، وهذه الأجمة، لما قدر عليها»[١٣١].

ويمدح طعام البصرة وأسعارهم متكئًا علىٰ أسلوب التفضيل، فيقول: «طعامهم أجود الطّعام، وسعرهم أرخص الأسعار، وتمرهم أكثر التُّمور، وريع دبسهم أكثر، وعلىٰ طول الزّمان أصبر»[١٣٢]، وذكر ما جاء علىٰ لسان بعض خطباء البصرة مادحًا البصرة بأسلوب التفضيل: «وقال بعض خطبائنا: نحن أكرم بلادًا، وأوسع سوادًا، وأكثر ساجًا وعاجًا وديباجًا، وأكثر خراجًا»[١٣٣].

إنَّ استخدام (أفعل التفضيل) سواء أكان من أسلوب الجاحظ نفسه، أو من اختياراته علىٰ لسان من يتحدث عنهم، وسواء غيَّر في عباراتهم أو لم يغيِّرها، تدلُّ علىٰ اختيار الجاحظ لأسلوب مشحون بدلالات التفخيم والترتيب السلمي، متخذًا منه رافدًا إضافيًّا من روافد تأكيد ما يرمي إليه، فالاتكاء علىٰ التفضيل «من أجل تفخيم النتائج وتقوية الحجج أولاً، وثانيا من أجل منح الأسلوب تواز صوتي»[١٣٤].

ب/ أساليب الطلب والدعاء:

تحبل الرسائل الجاحظية بنصائح وتوجيهات متعددة الصيغ، تارة بفعل الأمر:

(أقلل، حصن)، وتارة بأسلوب التحذير: (إياك والرغبة...)، وتارة بالنهي: (لا يغرنك...)، بهذه الأساليب الطلبية التي يرىٰ الجاحظ أنها كفيلة بتحصينه من حاسده، أرسل نصحًا وإرشادًا من خلالها.

إنَّ تعدد هذه الأساليب ليس بلاغة تنميقية يكسو بها الجاحظ نصه فحسب، وإنما ينشىء بوساطتها مدلولات أخرىٰ يكشف عنها السياق، حاملاً المتلقي علىٰ إنجاز الطلب.

تتضاعف الأوامر عندما يعضدها بالحجة، كما هو الحال في الأمثلة الموالية:

الطلب	الحجة
فأقلل ما استطعت من مخالطته	فإنه أعون الأشياء لك علىٰ مسالمته
وحصن سرك منه	تسلم من شره وعوائق ضره.
وإياك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنك خدع ملقه، وبيان ذلقه	فإن ذلك من حبائل نفاقه.
فأدنين إليه من يهينك عنده، ويذمك بحضرته	فإنه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل.

يرىٰ المتأمل نزوع الجاحظ إلىٰ تأكيد رسالته باستعمال عدة قرائن، منها: الاستفهام، والمثل، والتأكيد، وكأنَّ الجاحظ أقرب إلىٰ إلزام المتلقي بتلك الأمور من النصح والإرشاد.

ومن الأساليب الطلبية الاستفهام؛ إذ يعرض في رسائله جملة من الاستفهامات التي تضيء الأبعاد التي يرمي إليه الجاحظ في جوابه، من ذلك سؤاله: «ألا تراهم قد اختاروا ما هو أقبح علىٰ ما هو أحسن من الأسماء والصّناعات، ومن المنازل

والدّيارات، من غير أن يكونوا خدعوا أو استكرهوا»[١٣٥]، وقوله: «ألا ترىٰ أنَّ الله لم يجعل إلف الوطن عليهم مفترضًا، وقيدًا مصمتًا، ولم يجعل كفاياتهم مقصورة عليهم، محتسبة لهم في أوطانهم؟ ألا تراه يقول: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ (المزمل: ٢٠) فقسَّم الحاجات فجعل أكثرها في البعد...»[١٣٦].

وسؤاله: «ألا ترىٰ أنّهم عند بنيان الكعبة قال رؤساؤهم: لا تخرجوا في نفقاتكم علىٰ هذا البيت إلّا من صدقات نسائكم، ومواريث آبائكم! أرادوا مالا لم يكسبوه ولا يشكّون أنه لم يدخله من الحرام شيء»[١٣٧].

اتكأ في إقناعه علىٰ أسئلة رؤيوية/ بصرية (ألا ترىٰ) ليبدد التعجب في السؤال الذي تصدر الرسالة، ويشي السؤال بالإقناع بالرؤية، وغير خافٍ لما لهذا الأسلوب من قوة إقناعية لا يمكن ردها أو حتىٰ الاعتراض عليها.

وفي رسالته (الحاسد والمحسود) يتساءل متعجبًا تارةً من الحاسد، يقول: «كيف يصبر من استكنّ الحسد في قلبه علىٰ أمانيه»[١٣٨]، وتارةً من المحسود، يقول: «كيف لا تقرُّ أعين المحسودين بعد يوسف وقد ملَّكه الله خزائن الأرض»[١٣٩].

ومن الأساليب غير الطلبية لديه الدعاء؛ إذ يسبغ الجاحظ علىٰ المرسل إليه جملة من الأدعية التي لا يتضح كُنهها إلا بعد قراءة تأملية، ولم ترصع الجمل الدعائية بها الصدور والمتون والخواتم علىٰ نسق واحد، إنما خضعت وفقًا لمقتضىٰ التخاطب، وتباينت لتباين مقاصد الرسائل وأغراضها[١٤٠].

أتت بعض الأدعية في تضاعيف رسالته (الحاسد والمحسود)، وبلغ مجموعها خمسة، مرة «أيَّدك الله»[١٤١]، ومرة «أبقاك الله»[١٤٢]، والدعاء بالرحمة مرتين بصيغة

الماضي: «رحمك الله»[١٤٣]، وواحدة بصيغة المضارع «يرحمك الله»[١٤٤]، وأتىٰ الدعاء في رسائله مرة للتخلص من معنىٰ إلىٰ آخر، وتارة للتنبيه، وللربط بين أجزاء الرسالة[١٤٥] والتلطف قبل الأوامر، فذلك أدعىٰ للقبول بفعل الأوامر، نحو قوله: «إذا أحسست - رحمك الله - من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته...، وحصن سرك منه تسلم من شره وعوائق ضره. وإياك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنك خدع ملقه، وبيان ذلقه...»[١٤٦]، ولم يأت الدعاء جملة اعتراضية في تضاعيف الرسالة إلا في الفصل الأول ثلاث مرات[١٤٧]، وفي الفصل الثاني مرة واحدة[١٤٨].

إنَّ الدعاء في هذه الرسالة أشبه بمرتكزات انتقالية ومنبهات يتكئ عليها الجاحظ في الانتقال إلىٰ جواب آخر بدلاً من اللجوء إلىٰ إعادة السؤال الذي ورد في صدر الرسالة.

اصطفىٰ الجاحظ الدعاء للمرسل إليه في رسالته (مفاخر السودان) بقوله: «أعاذك الله من الغش»[١٤٩]، إنها جملة اعتراضية لا محلّ لها من الإعراب إلا أنَّ لها محلاً متمكنًا في المعنىٰ والنفس، جملة دعائية ممهدة لما يروم به وتخدم هدفه المنشود، ورغم أنها جملة إنشائية إلا أنها تضمر جملة خبرية، وهي: (إني لم أغشك)، دعاء يبعث للمرسل إليه بوعي المرسل بما يكتب، وتبعد عنه ما قد يجول في خاطر المرسل إليه من وسواس الشك والريب في المرسل، وتدعوه إلىٰ الطمأنينة، فتغدو هذه التعويذة فيئا إلىٰ ظلال الثقة بجواب المرسل، ومبعدًا عن المرسل نفسه صفة الغش وإن كان في الظاهر دعاء للمرسل إليه.

ثمة ملمح في رسالته (مفاخر السودان علىٰ البيضان) حيث خلت الرسالة في تضاعيفها من الدعاء عدا الدعاء الذي جاء في مطلعها.

أما في رسالته (الأوطان والبلدان) فقد أورد قوله: «ونسيت – أبقاك الله – عمل البلدان وتصرف الأزمان»[١٥٠]، وقوله: «ونحن ذاكرون – وبالله التوفيق – الخصال التي بانت بها بنو هاشم دون قريش»[١٥١].

علىٰ الرغم من اختلاف الدعاء في الرسائل صيغًا وضروبًا وعددًا، إلا أنه جاء متصلاً بضمير عائد علىٰ المخاطب (المرسل إليه) بوصفه مخاطبًا مقربًا إليه وإن لم يصرّح إليه، وقد حرص الجاحظ في رسائله علىٰ تصدير الرسائل بدعاء، وكأنه همزة وصل وحب قبل البدء تتوخىٰ القبول لدىٰ المرسل إليه، وتنشد الميل إلىٰ جواب المرسل.

ج/ أسلوب الشرط:

تنماز كثير من رسائل الجاحظ بشيوع أداة الشرط (إنْ)، و(إنْ) هي أم حروف الجزاء علىٰ رأي الخليل؛ لأنها لا تفارق المجازاة[١٥٢]، ولا تقع إلا «في المعاني المحتملة المشكوك في كونها»[١٥٣]، وكما ذكر الجرجاني أن «(إنْ) فيما يترجَّح بينَ أن يكون وأنْ لا يكون، وبـ(إذا) فيما عُلمَ أنه كائنٌ»[١٥٤]، وفي رسالته (الحاسد والمحسود) وردت في تسعة مواضع متتالية، يقول: «إنْ كان المحسود غنيًّا أن يوبخه علىٰ المال فيقول: جمعه حرامًا ومنعه أثامًا. وألَّب عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود علىٰ قطيعتهم في الظاهر وقال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون. وإنْ وجد له خصمًا أعانه عليه ظلمًا، وإنْ كان ممن يعاشره فاستشاره غشه، أو تفضل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلىٰ نصر خذله، وإنْ حضر مدحه ذمه وإنْ سئل عنه همزه، وإنْ كانت عنده شهادة كتمها، وإنْ كانت منه إليه زلة عظمها، وقال: إنه يحب أن يعاد

ولا يعود، ويرىٰ عليه العقود. وإنْ كان المحسود عالـمًا قال: مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل ومبتغي نيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل علىٰ الحيل. قد أقبل بوجوه الناس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه. فقبحه الله من عالم ما أعظم بليته، وأقل رِعَته[١٥٥]، وأسوأ طعمته. وإنْ كان المحسود ذا دين قال: متصنع يغزو ليوصىٰ إليه، ويحج ليثنىٰ بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النسك ليودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته»[١٥٦].

قد أغنىٰ الجاحظ حال الحاسد مع المحسود المتدثر بالغنىٰ، فيصبح حاسدًا وواشيًّا ومفسدًا أيما إفساد، فعندما أحاط الحاسد بما لدىٰ محسوده من خير ورزق طفق يؤلب عليه، وينسج له القصص والغصص، ويذمَّه ولا يعدم من لديه حسن ذامًّا. وذكر كيف يسلط الحاسد علىٰ محسوده أقاربه، وخصومه، بل هو نفسه حينما يستشيره أو يستنصره إلىٰ غير ذلك، والنصّ تنهمر منه عدة أسئلة: لم استخدم الجاحظ أسلوب الشرط في بيان شأن الحاسد في محسوده؟ ولم قسم المحسود إلىٰ ثلاثة أضرب: غني، وعالم، وذي دين، أليس هناك ثمة رابط بين ما جاء في مستهل كتابه من أسئلة التعجبية (العلماء، الأقرباء، الصالحين)؟ ولم افترض علىٰ لسان الحاسد أقوالاً، يقول: «إنْ كان المحسود غنيًّا...، فيقول:....، وإنْ كان المحسود عالـمًا قال:...، وإنْ كان المحسود ذا دين قال:...»[١٥٧]، ولِمَ أجرىٰ الجاحظ علىٰ لسان الحاسد في حال المحسود العالم -دعاء فحسب دون سواه؟ ونتذكر في السياق ذاته ما أطنب في رسالته: «كتاب: فصل ما بين العدواة والحسد»[١٥٨]؛ إذ ذكر عبدالسلام هارون (ت ١٤٠٨هـ) أنَّ هذه الرسالة يبدو أنها ألَّفها الجاحظ لأبي الحسن عبيد الله ابن يحيىٰ بن خاقان، وزير المتوكل ثم المعتمد[١٥٩].

فإذا رأىٰ أنَّ محسوده سعده طالع، وبريق أمواله لامع، وصيته ذائع، وحاله مورق فذاك يؤرقه فلا يهدأ له بالٌ حتىٰ يرىٰ أثر المحسود قد انمحىٰ واندثر، ولا يهنأ حتىٰ يكون المحسود قاعًا صفصفًا، وكأنّه الحزن الذي اعترىٰ المتنبي، ولسان حال المحسود: «فَلَيتَ دُونَكَ بِيدًا دُونَها بِيدُ»(١٦٠)، فالحاسد يتجانف عن الحق؛ لذا فثمة نصائح قدمها الجاحظ؛ إذ يرىٰ أنها من مغبات النجاة؛ إذ يقول: «فإنْ أردت أن تعرف آية مصداقه فأدنين إليه من يهينك عنده، ويذمك بحضرته، فإنّه سيظهر من شأنه»(١٦١).

أجاب الجاحظ عن أسئلة السائل ثم حذَّره بأسلوب شرط من الجهل والاعوجاج والتبلد والضلال والنسيان: «إنْ كنت تجهل بعد ما أعلمناك، وتعوج بعد ما قومناك، وتبلد بعد ما ثقفناك، وتضل إذ هديناك، وتنسىٰ إذ ذكرناك، فأنت كمن أضله الله علىٰ علم فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم علىٰ سمعه وقلبه، وجعل علىٰ بصره غشاوة. فنعوذ بالله من الخذلان. إنه لا يأتيك ولكن يناديك ولا يحاكيك ولكن يوازيك. أحسن ما تكون عنده حالاً أقل ما تكون مالاً، وأكثر ما تكون عيالاً، وأعظم ما تكون ضلالاً. وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدًا، وأبعد ما تكون من الناس حمدًا. فإذا كان الأمر علىٰ هذا فمجاورة الموتىٰ، ومخالطة الزمنىٰ، والاجتنان بالجدران، ومصر المصران، وأكل القردان، أهون من معاشرته، والاتصال بحبله»(١٦٢).

إنَّ العدول في جواب الشرط عن الجملة الفعلية إلىٰ الجملة الاسمية في الشاهد السابق له وظائف حجاجية ثلاث علىٰ الأقل، كما قال د. عبد الله صولة:

١ - «حصول دلالة التضمن من الجملة الاسمية عوضًا عن الدلالة التصريحية التي يمكن أن يحصل عليها من الفعلية»(١٦٣).

فلو استخدمت الجملة الفعلية، وهي: (إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك،... (فلا تجهل....)، دلّت علىٰ وجوب عدم الجهل فحسب، أما الدلالة الحاصلة من استخدام الجملة الاسمية في جواب الشرط «فأنت كمن أضله الله علىٰ علم فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم علىٰ سمعه وقلبه، وجعل علىٰ بصره غشاوة»[١٦٤]، فثمة دلالة تضمنية لدلالتها تضمنا علىٰ وجوب عدم الجهل، في المثال الأول، وعدم الاتصال بالحاسد في المثال الثاني، وهذا جزء من الدلالة العامة للجملة، وهي جمة، يجمع بينها أنها «فأنت كمن أضله الله علىٰ علم»[١٦٥].

٢- الجملة الاسمية في الجواب تقوم من الجملة الفعلية المحذوفة مقام العلة والسبب، والتعليل من شأنه أن يدفع بالمتلقي إلىٰ التسليم بالحكم[١٦٦]، ففي المثال الأول: «إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك...، فأنت كمن أضله الله علىٰ علم»[١٦٧] إذن لا تجهل، وفي المثال الثاني: «فإذا كان الأمر علىٰ هذا فمجاورة الموتىٰ...، أهون من معاشرته...»[١٦٨]؛ إذن لا تعاشر الحاسد.

٣- إنَّ التعبير بالجملة الاسمية «محاولة لجعل ما نقوله يقع خارج دورة الزمان، فلا تلابسه ذاتية، ولا يداخله انحياز»[١٦٩]، فتصبح بمنزلة الحقائق والمسلمات، وتغدو ضربًا من التأكيد والمبالغة كما ذكر ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)[١٧٠].

قد أطنب الجاحظ في شأن الحاسد مع محسوده متكئًا علىٰ أداة الشرط (إن) حتَّىٰ ليخيَّل للمتلقي من خلال الشرط ودقَّة الرصد في جوابه أنَّ الجاحظ عالم من علماء النفس المستقصي الذي لايشق له غبار، بله هو عينه الحاسد الذي تنوع حالات محسوده، فرصد ردة فعله رصدًا لا يحيد عنه أيّ حاسد، وقد حول الجاحظ معنىٰ أداة الشرط (إن) من دلالة الشك والاحتمال إلىٰ دلالة الاستقصاء في الممكنات، ففتح

الشرط بـ (إن) على آفاق أرحب؛ مما يدلُّ على أنَّ الجاحظ يستثمر الأساليب ويطورها.

د/ أسلوب القصر:

عرَّف البلاغيون القصر بأنَّه «تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، ويقال أيضًا: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه»[١٧١].

استثمر الجاحظ أسلوب القصر، ومال إلى طريق القصر بـ (ما) و(إلا)، ولا ريب في أنَّه لمس في القصر «بعدًا حجاجيًّا أعمق وأنجع في التوجيه نحو النتيجة الضمنية»[١٧٢]، وإذا كان النفي عادة ما «يوجه القول وجهة واحدة نحو الانخفاض»[١٧٣]، فإنَّ دعمه بالاستثناء يعدل تلك الوجهة ويسير بها لصالح النتيجة المرجوة. ويكون هذا أبلغ تعبيرًا وأجدى حجاجًا.

وقد تحدَّث عبد القاهر الجرجاني بإسهاب عميق عن التفاوت الدلالي والتداولي بين طرق القصر، نحو: (إن وإلا)، و(ما وإلا)، و(لا العاطفة)، و(إنما). ونبَّه على اشتراك الطريقين: (إن وإلا)، و(ما وإلا) في رفع الشك والإنكار عن المخاطب، يقول في ذلك: «أما الخبر بالنفي والإثبات، نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هذا إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه. فإن قلت: ما هو إلا مصيب، أو ما هو إلا مخطئ. قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت. وإذا رأيت شخصًا من بعيد وقلت: ما هو إلا زيد، لم قلته إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجدّ في الإنكار أن يكون زيدا، وإذا كان الأمر ظاهرًا كالذي مضى، لم تقله كذلك، فلا تقول للرجل ترققه على أخيه وتنبهه للذي يجب عليه من صلة الرحم ومن حسن التحاب: ما هو إلا أخوك»[١٧٤].

وقد أكثر الجاحظ من أسلوب القصر في رسالته (الحاسد والمحسود)، يقول: «ما خالط الحسد قلبًا إلا لم يمكنه ضبطه»[١٧٥]، ويقول: «وما أحب أن تكون عن حاسدك غبيًّا، وعن وهمك بما في ضميره نسِيًّا، إلا أن تكون للذلِّ محتملاً، وعلىٰ الدناءة مشتملاً، ولأخلاق الكرام مجانبًا، وعن محمود شيمهم ذاهبًا»[١٧٦].

جاء القصر في المثالين ليرفع كل وهم محتمل من المخاطَب كأن يقلل من خطورة الحسد وألا يضعه في موضع الحذر الشديد، حتىٰ لا يكترث به، فيقع فيما لا تحمد عقباه بعد ذلك. فالقصر الموظف من الجاحظ هو قصر يفيد الحرص البالغ.

والملاحظ أنَّ الجاحظ نوَّع طريقة عرض القصر إلىٰ نوعين، وهما الغالبان علىٰ كل ما جاء به من قصر في رسائله:

- النوع الأول: هو قصر مفرد علىٰ مفرد: مخالطة الحسد للقلب- عدم الضبط.

- النوع الثاني: هو قصر مركب علىٰ مركب: لا تكن عن الحاسد غبيا + ولا عنه نسيا - ستكون للذل محتملاً + وللدناءة مشتملاً + ولأخلاق الكرام مشتملاً + وعن محمود شمائلهم ذاهبًا.

ويتضح مما سبق أنَّ القصر المركب أقوىٰ في جعل المخاطَب يعدل عن تقصيره في التعامل مع الحاسد؛ لأنه ينفي عنه صفات مكارم الأخلاق التي يتصف بها الكرام.

ويمضي الجاحظ في استعمال أسلوب القصر، من ذلك قوله: «وما أتي المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه»[١٧٧]، وقوله: «وما لقيت حاسدًا قطُّ إلا تبيَّن لك مكنونه بتغيُّر لونه وتخوُّص عينه وإخفاء سلامه، والإقبال علىٰ غيرك والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك»[١٧٨]، وقوله: «وما استوجب

ذلك إلا بعدما استجمع له لُبُّه، وتبين لهم عقله، وافتقدوا منه جهله...»[١٧٩]، وقوله: «ولولا أنَّ المحسود بنصر الله إيَّاه مستور، وهو بصنعه محجوب لم يأت عليه يوم إلاَّ كان مقهورًا، ولم تأت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصورًا. ولم يُمَسِ إلاَّ وماله مسلوب، ودمُه مسفوك، وعرضه بالضَّرب منهوك»[١٨٠]، وقوله: «لا يحب من الناس إلا من يبغضك، ولا يبغض إلا من يحبك»[١٨١]، وقوله: «فما أنزلهم دار كرامته إلا بعد ما نزع الغلَّ والحسد من قلوبهم»[١٨٢]، وقوله: «وما أرىٰ السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه، ولا الراحة إلا في صرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته»[١٨٣].

بنىٰ الجاحظ أسلوب القصر غالبًا علىٰ طريق (ما وإلا) التي يظهر فيها التناوب بين النفي والإثبات، ولا ريب في أنَّ «تداخل النفي والإثبات في القصر يجعله مركزًا مخطومًا، ذا إشعاع وظلال، وقوة حسم»[١٨٤]؛ لأنَّه «تأكيد فوق تأكيد»[١٨٥]، وأتساءل لِمَ كل هذا الإقناع والتوكيد لمجانبة الحاسد؟ أضاق بحاسديه ذرعًا، خاصة أنَّ رسالته الشهيرة (التربيع والتدوير) أكبر دليل علىٰ ضجره وضيقه منهم؟

والملاحظ أنَّ هذا البناء اللغوي القصري كفيل بتحقيق ما ينشده الجاحظ من نقد عنيف لسيكلوجيا الحسد؛ إذ يروىٰ عن الجاحظ «أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم، فينسبه إلىٰ نفسه فلا يرىٰ الأسماع تصغي إليه ولا الإرادات تيمم نحوه، ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ثم ينحله عبد الله ابن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين، ومن قد طارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون علىٰ كتبهم، ويسارعون إلىٰ نسخها لا لشيء إلا لنسبتها إلىٰ المتقدمين، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته علىٰ المناقب التي

يخص بها»[١٨٦]، إنَّ هذا النص يبدد العلة من إكثار الجاحظ من أسلوب القصر في معرض حديثه عن الحسد والحساد، فقد ذاق منهم الويلات، وتجرّع النكبات؛ إلىٰ حد بلغ به إبعاد اسمه في المؤلفات التي ألَّفها من تلافيف فكره وعصارة روحه كما جاء في رسالته (العدواة والحسد)[١٨٧]؟!

هـ/ الإطناب والإيجاز:

لم يكن الجاحظ غير واعٍ بإجابته، أو يستطرد بالخروج عن صلب السؤال الذي هو بصدد الإجابة عنه، يقول: «ولم يكن قصدنا في أول هذا الكتاب إلىٰ ذكر هاشم، وقد كان قصدنا الإخبار عن مكة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب، ولكن ذكر خصال مكة جر ذكر خصال قريش، وذكر خصال قريش جرَّ ذكر خصال بني هاشم»[١٨٨]. ثم يعود ليذكر القارئ «فإن أحببت أن تعرف جملة القول في خصال بني هاشم فانظر في كتابي هذا الذي فرقت فيه بين خصال بني عبد مناف وبين بني مخزوم، وفرقت ما بين عبد شمس؛ فإنه هناك أوفر وأجمع، إن شاء الله تعالىٰ»[١٨٩]، وكأنَّ «الجاحظ باستمرار خطاب من داخل خطاب»[١٩٠]، وهذا الخطاب لا ينبتّ عن الخطاب الآخر، إنما يدور في فلكه، ويحوم في حماه، متصلاً لا منفصلاً عن خطابه الرئيس.

إنَّ الجاحظ كان واعيًّا وحريصًا في آن ألا يخرج عما هو بصدد الحديث عنه، من ذلك عندما تحدّث عن المقصود من لفظة (الأرض) الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ (يوسف:٨٠)»[١٩١]، وأردف قائلاً: «والأرض هاهنا مصر. وفي هذا الموضع كلام حسن. ولكنّا ندعه مخافة أن نخرج إلىٰ غير الباب الذي ألّفنا له هذا الكتاب»[١٩٢]، في الموطنين يتجلّىٰ نكوص الجاحظ علىٰ عقبيه مغبة الإطالة والإطناب.

وفي رسالته (الشارب والمشروب)، عندما أورد في تحليل النبيذ عن الخمر ذكر أنَّ «هذا باب يطول شرحه إنْ استقصيت جميع ما فيه من المسألة والجواب»[١٩٣]، وقبيل أن يختم رسالته قال: «وقد أحببت - أيّدك الله - التّوثّق من إصغاء فهمك، وسؤت ظنّا بالتغرير فقدّمت لك من التّوطئة ما يسهّل لك سبيل المعرفة...، ولو لم يكن ذلك وكان قد اعتاص عليّ البرهان في إظهاره، واحتجت في الإبانة عنه إلىٰ ذكر ضدّه، ونظيره وشكله، لم أحتشم من الاستعانة بكلّ ذلك. فكيف والقدرة - بحمد الله - وافرة، والحجّة واضحة»[١٩٤]، اعتراف صريح من الجاحظ بحسن الإصغاء وقدرته الكلامية.

وفي ختام رسالته أفصح عن منهجه في الإجابة، يقول: «وقد كتبت لك - أكرمك الله - في هذا الكتاب ما فيه الجزاية والكفاية، ولو بسطت القول لوجدته متَّسعًا، ولأتاك منه الدّهم. وربّما [كان] الإقلال في إيجاز أجدىٰ من إكثار يخاف عليه الملل. فخلطت لك جدًّا بهزل، وقرنت لك حجّة بملحة، لتخفّ مؤونة الكتاب علىٰ القارئ، وليزيد ذلك في نشاط المستمع، فجعلت الهزل بعد الجدّ جمامًا، والملحة بعد الحجّة مستراحًا»[١٩٥]، لقد كان الجاحظ مستدركًا بالإجابة، قادرًا علىٰ المضي في البسط، بيد أنَّه وضع نصب عينيه الإيجاز والحجة والملحة، فهو يدور في محور الإجابة ولا يبعد عن فلكها وحدودها، ولا يفتأ الجاحظ مذكّرًا المتلقي أنَّ إجابته جاءت أمشاجًا من الجد والهزل.

إنَّ ما وُصف به أسلوب الجاحظ من استطراد، عدّه د. عباس أرحيلة «منهجًا في التأليف؛ جاء نتيجة تنوّع معارفه، وسعة ثقافته، ونتيجة ما يجده من لذة في تنويع المادة واستقصاء جوانبها والبحث عن غرائبها ودقائقها. فهو يبدو في بعض الأحيان كأنما يعبث

بكل تخطيط وتنظيم وتسلسل في الأفكار، وتراه يتحرك بين الأفكار بكل حرية ووعي وتحدٍّ، وغايته أن يلم بالموضوع من جميع أطرافه، ويرده إلىٰ مختلف عناصره»[١٩٦].

❋ ثالثًا: الشواهد والحجج:

لم يكن للجاحظ منهجٌ قارٌّ في إيراد الشواهد والحجج، إلا أنها كانت تتفق في المنثور والمنظوم فيما سيقت إليه من غرض، ولا ريب في أنَّ الشواهد «تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها»[١٩٧].

إنَّ السؤال في صدر رسائل الجاحظ أشبه ما يكون اختباريا من أن يكون معرفيًّا، إنَّ الجاحظ يعي ما وراء السؤال؛ فيظهر قدرته علىٰ الجواب من خلال البحر الذي ينهل منه؛ إذ تتشعب الأودية التي يمتح منها الجاحظ شواهده، ويستقي منها حججه، وقد عزّز الجاحظ جوابه في رسائله عن أسئلة السائل بكثير من الحجج النقلية والعقلية، وهي:

أ/ الحجج النقلية:

تنوعت الحجج النقلية في رسائل الجاحظ، حيث اعتمد علىٰ القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والأدب.

١ - الحجج القرآنية:

اختار الجاحظ من الكتاب العزيز، بوصفه حجة الحجج؛ إذ يورد النص القرآني بنصِّه، أو يورد فحوىٰ القصة ليتناسب وسياق الرسالة، فقد أورد في رسالته (الحاسد والمحسود) قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، دون ذكر الآية، إنما صاغ فحوىٰ القصة، وقد أشار مبالغة إلىٰ أنَّه شقيقهم، حيث يقول: «وهو شقيقهم وبضعة منهم»[١٩٨]، وتدلُّ

القصة كما وردت في القرآن أنهم أبناء علات، آية ذلك، قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ ﴾ (يوسف:٥٩).

وفي رسالته عن (الأوطان والبلدان) فقد احتج بآيات تتحدث عن الأماكن، وشرح مدلولها في السياق الذي هو بصدده، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ ﴾ (النساء:٦٦)، وقوله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ ﴾ (البقرة:٢٤٦).

وفي رسالته (فخر السودان علىٰ البيضان) أورد في جوابه ما يتمتع به اللون الأسود من جمال مؤيدا قوله بشاهد من القرآن الكريم؛ إذ يقول علىٰ لسان السودان: «قالوا: وأحسن الخضرة ما ضارع السّواد. قال الله ﷻ: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٦٢)، ثم قال لـمّا وصفهما وشوّق إليهما: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٦٤)، قال ابن عباس: خضراوان من الرّيّ سوداوان»[١٩٩].

إنَّ هذا «الشاهد القرآني يخدم المفاخرة من جوانب متعددة، فهو يخرج المعنىٰ المدحي في أبلغ الصور وأكملها، ويقنع السامع أو القارئ بفضل هذا اللون علىٰ سائر الألوان، ويعطي السواد أبعادًا جمالية تتجاوز الجمال الدنيوي المحسوس إلىٰ مراتب الجمال الخالد أي: جمال الجنة»[٢٠٠].

٢- الحجج الحديثية:

يورد تلك الشواهد لتعزيز المعنىٰ الذي رام إليه وقصده، وتعضيده، من ذلك استقدم قول الرسول ﷺ بوصفه ثاني حجة بعد الكتاب العزيز، مثل قوله عن المدينة المنورة: «إنها طيبة تنفي خبثها وتنصع طيبها»[٢٠١]، والحديث في صحيح البخاري، قال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا المَدِينَةُ كَالكِيرِ، تَنْفِي خَبَثَهَا، وَيَنْصَعُ طِيبُهَا)[٢٠٢].

٣- الحجج التاريخية:

استجلب الجاحظ أقوال العارفين، ولوعيه بقيمة الحجج النقلية، ابتدأ بها قبل الإجابة لتكون بمثابة ثريا تضيء إجاباته. يقول: «وقد قال الأول: (عمر الله البلدان بحب الأوطان)، وقال ابن الزبير: (ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم)...، ومثل ما قيل عن مصر: وقال عبد الله بن عمرو: (البركة عشر بركات: تسع بمصر والواحدة في جميع الأرض)»[٢٠٣].

يتَّضح من خلال بعض الرسائل أنَّ الجاحظ لم يكتفِ بالشواهد علىٰ النقل فحسب، وإنما علىٰ السماع أيضًا، وينصُّ علىٰ ذلك، منه قوله في رسالته (الأوطان والبلدان) عند حديثه عن ميزات بني هاشم: «وهذا شيء سمعته من أبي عبيدة، ومنه استمليت هذا المعنىٰ»[٢٠٤]، وقوله في حديثه عن الكوفة: «وخبّرني من بات أنّه لم ير كواكبها زاهرة قطّ، وأنّه لم يرها إلّا ودونها هبوة»[٢٠٥]، وفي حديثه عن (منف)، وهو موضع منزل فرعون، يقول: «وأخبرني شيخ من آل أبي طالب من ولد عليّ»[٢٠٦].

٤- الحجج الأدبية:

تنوَّعت الشواهد الأدبية ما بين أمثال وشواهد شعرية، أمَّا الأمثال ففي ضربها «من تقرير المقصود ما لا يخفىٰ...، وفيه أيضًا تبكيت الخصم»[٢٠٧]، ويكتسي استدعاء الأمثال العربية حجة تقود المتلقي إلىٰ الإقناع؛ إذ «يكون المثل المضروب مجربًا مسلمًا عند السامع»[٢٠٨]، والمثل «جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلىٰ كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلىٰ أشباهه من المعاني؛ فلذلك تضرب، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها»[٢٠٩]، وكأنَّ المثل صوت ينبعث من

الماضي المضيء، ممارسًا حضوره؛ ليفسح مجال التأثير والإقناع[٢١٠].

نهل الجاحظ من الأمثال، وهذا من شأنه تأكيد المعنىٰ الذي يرمي إليه الجاحظ، وكأنه يعرّض بالمتلقي، مؤثرًا فيه أيما تأثير؟ «أتطلب ويحك أثرًا بعد عين، أو عطرًا بعد عروس، أو تريد أن تجتني عنبًا من شوك، أو تلتمس حلب لبن من حائل. إنك إذن أعيا من باقل، وأحمق من الضبع، وأغفل من هرم»[٢١١].

فالسؤال لم لجأ الجاحظ إلىٰ تلك الأمثال؟ ولِمَ لَمْ يكتف بمثل واحد فحسب، ولم ازدانت الأمثال بالسؤال؟ وهل حذف النفي من بعض تلك الأمثال ضرب من ضروب إقرار السائل ومشاركته؛ إذ الأمثال كما جاءت عند العرب: «لا تطلب أثر بعد عين، لا مخبأ لعطر بعد عروس،...»[٢١٢]؟ ولم لجأ إلىٰ إجابة افتراضية من السائل؟ ولم أردف تلك الإجابة بأمثال أيضًا؟

أتت أمثال الجاحظ مصدرة باستفهام وأربعة أمثال معطوفة بـ(أو) التي تفيد التخيير، وإن كان اتحاد في مجرىٰ نهر الأمثال، فالنفي مصير تلك الأمثال، فلا يطلب الأثر بعد المعاينة، ولا العطر بعد عروس، ولا من الشوك العنب ولا يلتمس الحلب من حائل، بعد ذلك أتىٰ الجواب، وإن لم يجب السائل؛ إذ افترض الجاحظ أن تكون الإجابة بنعم، حينئذ ينهال عليه بثلاثة أمثلة معطوفة بـ(الواو)، متصدرة بمؤكد بـ(إنك)، وكأنَّ الجاحظ خاض غمار الحاسدين وخبر غبارهم.

أثرًا بعد عين	**حاسة البصر**
أو عطراً بعد عروس	**حاسة الشم**
أو تريد أن تجتني عنبًا من شوك.	**حاسة اللمس**
أو تلتمس حلب لبن من حائل.	**اللمس والبصر**

فيسبغ الجاحظ عليه صفة العي والحمق والغفلة بصيغة التفضيل (أفعل): (أعيا..، أحمق، أغفل...).

إنَّ استخدام الجاحظ للأمثال ليشير إلىٰ أنَّ عدم اقتناع المتلقي سيؤول مصيره إلىٰ مصير من أصيب بالعي والحمق والغفلة بل أشد، مسلمًا بوجوب الابتعاد عن الحاسد، إنَّ الأمثال بمنزلة جسور يعبر بها إلىٰ ذهن المتلقي لإقناعه.

أما بشأن الشواهد الشعرية فهي «تعلو الكلام العادي درجة؛ مما يجعلها في السلم الحجاجي إلىٰ ما هو أرفع»[٢١٣]، وبالتتبع الدقيق للشواهد الشعرية في (مفاخر السودان) يجد القارئ أنَّ الجاحظ لم يتغاض عن نسبة الشواهد إلىٰ قائليها إلا لمامًا، جاء ذلك في خمسة مواضع فتارة ينسبه إلىٰ أعرابي فقط، إذ يقول: «وقال أعرابيّ وقد أصابته براغيث عند امرأة كان نزل بها...»[٢١٤]، وتارة ينسبه إلىٰ آخر: «وقال الآخر...»[٢١٥]، وتارة ينسبه إلىٰ فئة، يقول: «وقد قال شاعركم...»[٢١٦]، وتارة ينسبه إلىٰ الراجز، وجاء ذلك في موضعين: «قال الراجز: سود غرابيب...»[٢١٧]، و«قال الراجز:...»[٢١٨]، وقد انصرف الجاحظ في جل رسالته (مفاخر السودان) إلىٰ «إنشاء نص أدبي حول كلمة أسود، عماده في ذلك الشاهد الأدبي»[٢١٩]، ولا ريب في أنَّ تنوّع تلك الشواهد ووفرتها «عمل يكسب الخطاب حجية عالية، ويضمن لبانيه ما عقد العزم عليه، وتحصيل ما وجه النوايا إليه، وهو ما قضىٰ بذلك، وحتمه»[٢٢٠].

ب/ الحجج المنطقية:

لم يفت الجاحظ، وهو الخبير بأمور الجدل والإقناع، أن يدعم رسائله بالحجج العقلية، ومن أقواها في الرسالة القياس؛ فقد استند الجاحظ علىٰ القياس في بداية جوابه؛ ليكون كلامه مقنعًا متماسكًا لا يرد، من ذلك قوله: «واعلم - أبقاك الله - أنَّا

متىٰ قدَّمنا ذكر المؤخر وأخرنا ذكر المقدم فسد النظام وذهبت المراتب. ولست أرىٰ أن أقدِّم شيئًا من ذكر القرىٰ علىٰ ذكر أم جميع القرىٰ. وأولىٰ الأمور بنا ذكر خصال مكة ثم خصال المدينة. ولولا ما يجب من تقديم ما قدَّم الله وتأخير ما أخر لكان الغالب علىٰ النفوس ذكر الأوطان وموقعها من قلب الإنسان»[٢٢١].

ففي هذا النص قياس، يمكن بناؤه علىٰ النحو الآتي:

- مقدمة كبرىٰ: كل كلام مرتّب من المقدَّم فالمؤخَّر يدل علىٰ نظام.
- مقدمة صغرىٰ: أنا أقدّم أم القرىٰ علىٰ كل القرىٰ.
- نتيجة: رسالتي منظمة.

وهذا قياس مضمر؛ لأنَّ الجاحظ لم يذكر النتيجة صراحة، ولكنها فهمت من ثنايا المقدمتين. ومعلوم أنَّ الغالب علىٰ الكلام والكتابة هو هذا النوع من الأقيسة التي تتواءم مع انسيابية الكلام وسلاسته، كما أنها تفتح أمام المخاطَب مجالاً لملء شواغر الكلام، فتكون ذات طبيعة حوارية تبادلية.

ومنه أيضًا، ما جاء به في الاحتجاج لإلف الأوطان مهما كانت تبدو عن غير الساكنين بها غير جديرة بذلك، قوله: «ولولا ما منَّ الله به علىٰ كلِّ جيل منهم من الترغيب في كل ما تحت أيديهم وتزيين كل ما اشتملت عليه قدرتهم وكان ذلك مفوَّضًا إلىٰ العقول وإلىٰ اختيارات النفوس - ما سكن أهل الغياض والأدغال في الغمق واللثق ولما سكنوا مع البعوض والهمج»[٢٢٢].

وأصوغ هذا القياس علىٰ الشكل الآتي:

- مقدمة كبرىٰ: كل ما تحت الناس زينه الله لهؤلاء الناس.
- مقدمة صغرىٰ: الأوطان المذمومة تحت الناس.

- نتيجة: الأوطان المليئة بالبعوض والهمج لها ألفة في عيون القاطنين فيها.

ومن ذلك أيضًا قوله: «فأمّا بحرنا هذا فقد طمّ علىٰ كلّ بحر وأوفىٰ عليه، لأنّ كلّ بحر في الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئًا إلّا بحرنا هذا. الموصول ببحر الهند إلىٰ ما لا تذكر. وأنت تسمع بملوحة ماء البحر، وتستسقطه وتزري عليه. والبحر هو الذي يخلق الله تعالىٰ منه الدّرّ الذي بيعت الواحدة منه بخمسين ألف دينار، ويخلق في جوفه العنبر، وقد تعرفون قدر العنبر. فشيء يولّد هذين الجوهرين كيف يحقّر؟»[٢٢٣]، ففي العبارة السابقة حجتان متعاضدان، الحجة الأولىٰ:

- مقدمة كبرىٰ: كل بحر فيه خيرات كثيرة (الدر والعنبر).
- مقدمة صغرىٰ: البحر خير من غيره.
- نتيجة: البحر لا يحتقر.

أما الحجة الثانية:

- مقدمة كبرىٰ: بحرنا فيه خيرات وثروات.
- مقدمة صغرىٰ: بحرنا موصول ببحر الهند العجيب.
- نتيجة: بحرنا أحسن بحور الدنيا.

*** رابعًا: الصور البلاغية:**

لم تظفر رسائل الجاحظ بالتشبيهات والاستعارات الكثيرة، فالمعاني لديه «تؤدىٰ في دقة، تفسر الوقائع، والأحداث تفسيرًا لا تستره أسجاف الاستعارات والأخيلة، وليس معنىٰ ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير، فإنه إنما عزف عن الأخيلة؛ لما تضع أمام القارئ من مبالغات، أما بعد ذلك، فإنه كان مصورًا عظيمًا، إذ

كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها، ودقائقها تسعفه في ذلك قدرة غريبة علىٰ الملاحظة، وهي قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة كما يحسن القصص من جهة أخرىٰ»[٢٢٤]. وهذا لا يعني خلوُّ الرسائل من هذه الصور جملة، بل إنها تخلو من التشبيهات والاستعارات الشعرية البعيدة، أما ما كان ذا طبيعة خطابية تداولية بيانية فهو موظف عند الجاحظ.

استثمر الجاحظ التشبيه بوصفه «استقراء بلاغيا، وهو حجة تقوم علىٰ المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية أحدهما بالنظر إلىٰ نهاية مماثلتها»[٢٢٥]، ومن التشبيهات الواردة في رسائله قوله في رسالته الحاسد والمحسود، وقد أسبغ علىٰ الحاسد عدة تشبيهات مصوّرًا خبايا نفسه: «فهو الكَلْب الكَلِب، والنَّمر النَّمر والسُّمُّ القشب، والفحل القطم، والسيل العرم»[٢٢٦]، فقد كشف الجاحظ هنا عن النوازع النفسية للحاسد، وأورد الجاحظ التشبيه في معرض الذم. وشبه الحسد بداء عسر علاجه، يقول: «والحسد - أبقاك الله - داء ينهك الجسد، ويفسد الود، علاجه عسر، وصاحبه ضجر. وهو باب غامض»[٢٢٧]. كما وظَّف التمثيل، وأدرجه في موطن الذم؛ ليكون «مسّه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشدّ، وحدّه أحدّ»[٢٢٨]، ويبلغ الحاسد غاية الذم عندما شبهه بالذباب وبالسيل المنحدر، يقول: «وهو ألح في حسده لك من الذباب، وأسرع في تهريقك من السيل إلىٰ الحدور»[٢٢٩]، شبَّه إلحاح الحاسد في الحسد علىٰ محسوده بإلحاح الذباب، الذي كلّ ما ذبَّ آب، بل أكثر منه، فهو يألف القذارة - كرم الله القارئ - إذ يطرد ويؤوب مرة أخرىٰ، وكما هو معلوم أنَّ السيل إلىٰ الموضع المنحدر قوي وفتاك وسريع، فالحاسد أسرع منه في تمزيق المحسود.

واتخذه في موطن الوعظ والإقناع قال الجاحظ في نصيحة وعظية للمحسود: «إنْ

كنت تجهل بعد ما أعلمناك، وتعوج بعد ما قومناك...، فأنت كمن أضله الله علىٰ علم فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم علىٰ سمعه وقلبه، وجعل علىٰ بصره غشاوة»[٢٣٠]، والتمثيل في موطن الوعظ يكون «أشفىٰ للصدر وأدعىٰ للفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر»[٢٣١].

ولجأ الجاحظ إلىٰ التمثيل لرسم صورة ذهنية عن الحسد، مستمدًّا مادته من القرآن الكريم، من ذلك قوله: «فأنت كمن أضله الله علىٰ علم فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم علىٰ سمعه وقلبه، وجعل علىٰ بصره غشاوة»[٢٣٢].

أما الاستعارات الشعرية البعيدة فلم يوظفها الجاحظ في رسالته، إلا ما جاءت عفو الخاطر ذات غاية تواصلية، ومنسجمة مع الطبيعة النصية لرسالة تنحو إلىٰ الإعلام والإخبار والإجابة. فمن استعاراته السلسة قوله: «ونسيت - أبقاك الله - عمل البلدان وتصرف الأزمان وآثارهما في الصور والأخلاق وفي الشمائل والآداب...»[٢٣٣]، فقد جعل البلدان والأزمان كإنسان يعمل ويتصرف وله أثر في الأشياء المادية والمعنوية، وقوله: «وأكثر ذلك ما كان مع طول الاغتراب والبعد، والعقل المولود متناهي الحدود وعقل التجارب لا يوقف منه علىٰ حد»[٢٣٤]، فقد جعل العقل مولودًا، كما جعل للتجارب عقلاً جريا علىٰ عادة الجاحظ في أنسنة الأشياء والأفكار، وقوله: «وليس في الأرض بلدة أرفق بأهلها من بلدة لا يعز بها النقد وكل مبيع بها يمكن»[٢٣٥]، فجعل البلدة مثل إنسان رفق بأهله.

ومن استعاراته أيضًا عن الحسد: «والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق، وحرب البيان»[٢٣٦]، وقوله: «ولو لم يدخل علىٰ الحاسد بعد تراكم الغموم علىٰ قلبه»[٢٣٧].

ويحرص الجاحظ على استثمار الصور البلاغية ذات الطبيعة التداولية؛ لتوجيه القراء والتأثير فيهم، فالصورة عنده بناء من ذاتين: المتكلم والقارئ؛ «لأنَّ الصورة كلام نصفه، وهو المصرّح به من صنع النص أو المتكلم، ونصفه هو الضمني من صنع المتلقي، وهذا الوضع يكفل للصورة قدرتها الحجاجية»[٢٣٨].

*** خامسًا: المحسنات البديعية:**

لم يكن الجاحظ شديد الولع بالبديع إلا ما جاء عفو الخاطر، ولا غرو في ذلك؛ إذ «العارفين بجواهر الكلام لا يعرِّجون على هذا الفنّ إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحَّته، وإلا حيثُ يأمَنون جنايةً منه عليه، وانتقاصًا له وتعويقًا دونه»[٢٣٩]، آية ذلك «خُطَب الجاحظ في أوائل كتبه، هذا - والخُطبُ من شأنها أن يُعْتَمَد فيها الأوزانُ والأسجاعُ، فإنها تُرْوَى وتُتناقل تَنَاقُلَ الأشعار، ومحلُّها محلُّ النسيب والتشبيب من الشعر»[٢٤٠]؛ لذا فـ «الاحتفالُ في الصنعة، والدَّلالةُ على مقدار شَوْطِ القَرِيحَة، والإخبارُ عن فَضْل القوة، والاقتدار على التفنُّن في الصنع»[٢٤١]، وكأنه مطلب فيها، وعلى الرغم من ذلك فلم يهرع إليه الجاحظ إلا إذا اقتضاه المعنى؛ لأنه يرى أنَّ «التوفيق بين المعاني أحقُّ، والموازنة فيها أحسنَ، ورأى العناية بها حتى تكونَ إخوةً من أبٍ وأمٍّ؛ ويذَرَها على ذلك تَتَّفقُ بالوداد، على حسب اتّفاقها بالميلاد، أَوْلى من أن يَدَعها، لنُصْرَة السجع وطلب الوزن، أولادَ عِلَّة، عسى أن لا يوجد بينها وفاق إلا في الظواهر»[٢٤٢].

ومن المحسنات البديعية لديه السجع والجناس، من ذلك قوله: «وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربّه وأثكل أباه. وبالحسد طوّعت له

نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. لقد حمله الحسد علىٰ غاية القسوة، وبلغ به أقصىٰ حدود العقوق، فأنساه من رحمه جميع الحقوق، إذ ألقىٰ الحجر عليه شادخًا، وأصبح عليه نادمًا صارخًا»[٢٤٣]، فالسجع والجناس في (أخاه/ أباه)، (العقوق/ الحقوق)، (شادخًا/ صارخًا)، أحدث تجاوبًا صوتيًّا بين أواخر الجمل.

وقوله علىٰ لسان حاسد العالم: «وإن كان المحسود عالـمًا قال: مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل ومبتغي نيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل علىٰ الحيل. قد أقبل بوجوه الناس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه»[٢٤٤].

إنَّ تلك المحسنات لم تثقل كاهل رسالته، فهي جمل متواطئة لتتناغم والمعنىٰ المنشود، فقد زيَّن الجاحظ بهذا الحلي عروسه تزيينًا طفيفًا لطيفًا، فلم ينل تلك العروس من ذلك مكروه في نفسها، فالمعنىٰ هو الذي ساق نحوه[٢٤٥].

كما برع الجاحظ في استعمال الطباق استعمالاً حجاجيا تفاضليا مفارقًا، نحو قوله: «لم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء وقل في البعداء؟ وكيف دبَّ في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟»[٢٤٦]. فالطباق يزري بالعلماء والأقرباء والصالحين في هذا الموطن.

***

الخاتمة

بعد تطواف في فكر الجاحظ من خلال رسائله، والتنقيب في (أسئلته) و(أجوبته) تبينت عدة نتائج، أهمها:

– تحكمت ثنائية السؤال والجواب في رسائل الجاحظ؛ مما منح الرسائل طابعًا حواريًّا جداليًّا. ولعلَّ يمكن تعميم مفاده أنَّ هذه الثنائية هي مداخل إلىٰ فهم فكر الجاحظ. ذلك البلاغي والناقد الإشكالي.

– الرسالة موطن الجاحظ الذي يرتاح فيه، ويستجيب للتصريح بأفكاره ورؤاه. إنَّه المجال الذي يبرهن فيه للثقافة العربية في مختلف عصورها علىٰ ريادة فكره الحر، وثقافته الموسوعية التي تتشابك فيها الثقافات العربية وغير العربية.

– رصدت الدراسة أنَّ السؤال جاء متنوعًا في الرسائل الأربع فتارة سؤال مباشر، وتارة غير مباشر، وتارة جمع بين المباشر وغير المباشر، أما السؤال غير المباشر فقد ورد في صيغة فعل أمر.

– تأطّر السؤال المباشر بأسماء الاستفهام فحسب، وخلا من الحروف. ولا غرو في ذلك؛ إذ طبيعة الرسالة تفرض ذلك، وليس الاقتصار علىٰ الإجابة بـ(نعم) أو (لا)، وفسح له المجال رحبًا للتعبير عن أفكاره وثقافته. ليس الجاحظ من أولئك الذين يقفون عند حدود (نعم) أو (لا)، وإنما هو يناقش الآراء ويقارع الرؤىٰ، ويتعمق في الكيفيات.

– ظلَّ السائل غائبًا في رسائل الجاحظ، وهذا يدفع إلىٰ تأويلات متباينة: فهل المقصود أنَّ السؤال هو الأهم أو أنَّ السائل لا يرغب في تبيان هويته أو أنَّ الأمر يتعلق

باستراتيجية يقوم بها الجاحظ لإدهاشنا بموسوعيته...؟

– أكدت الدراسة أنَّ المرسل حاذق في الدعاء للمرسل إليه؛ إذ جاءت في الدعاء إشارات إلىٰ ما يرمي إليه.

– اتسم الجواب في رسائل الجاحظ بثراء الأمثال العربية؛ مما أكسبها قوة حجاجية وإقناعية.

– هيمن أسلوب القصر بأداة الاستثناء المنفية علىٰ الجواب خاصة في رسالته (الحاسد والمحسود).

– شيوع أداة الشرط خاصة في رسالتيه (الحاسد والمحسود) و(الأوطان والبلدان).

– أكدت الدراسة أنَّ الحجج النقلية والعقلية التي لجأ إليها الجاحظ قبل أن تكون شاهدة علىٰ صحة جوابه، هي شاهدة أولاً علىٰ براعته، وتمكنه، وسعة ثقافته، وغزارة علمه، فقد غزت الحجج الدينية والتاريخية والشعرية خاصة في جواب رسالته مفاخر السودان؛ إذ أتىٰ بالشاهد تلو الشاهد؛ ليقف شاهدًا علىٰ صحة جوابه، ولئلا يظن أنَّ مفاخرهم برق خلب، فمنهم الشاعر والفقيه والشجاع المهاب الذي لا يغلب.

– لم يكن الجاحظ مستطردًا في جوابه، خارجًا عن متطلبات السؤال المطروح، إنما كان التوسع في الجواب هو الأثير لديه، فجاءت الأجوبة بإطناب بلا ملل منه ولا كلل.

– لم يقتصر الجواب في رسالته (مفاخر السودان) علىٰ مفاخر الإنسان الأسود؛ إنما ينأىٰ عنه قليلاً؛ إذ أتىٰ بمفاخر الأسود في شتَّىٰ ضروبه من (جبل، نبات، حيوان،

جماد) الجامع بينهما اللون الأسود، إنَّ الجواب يتماهىٰ مع السؤال المطلق الفضفاض غير المباشر الذي سأله السائل، ويمكن عدّ الرسالة احتفاء بمطلق السواد.

- انكب الجاحظ في رسالته (الحاسد والمحسود) علىٰ تصوير دقيق للحسد وشعور الحاسد وموقفه من المحسود.

- تشي رسالته (الحاسد والمحسود) ببعض الإسقاطات النفسية التي مرَّ بها الجاحظ مع معاصريه، وإن كانت الرسالة إجابة عن سؤال سائل.

***

الهوامش والتعليقات

(١) الأرماث: «جمع رَمَث، بفتح الميم: خشب يضم خشب يُضمُّ بعضه إلىٰ بعضٍ، ويُشدُّ، ثمَّ يُرْكب في البحر»، لسان العرب، (٥/ ٣٠٩).

(٢) ذكر الزركلي في ترجمة الجاحظ أنَّ سبب وفاته مجلدات من الكتب وقعت عليه فقتلته، ينظر: الأعلام، الزركلي، (٥/ ٧٤).

(٣) مقالات العلامة الدكتور/ محمود محمد الطناحي: صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، (١/ ٢٦١).

(٤) جاء في معجم البلدان أن الجاحظ كتب إلىٰ أحمد بن أبي دواد:

كلهم فاضل عليّ بمال * ولساني يزينه التحبير

فإذا ضمّنا الحديث وبيت * وكأني علىٰ الجميع أمير

معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب، الحموي (ت ٦٢٦هـ)، (٥/ ٢١٠٤).

(٥) السابق، (٥/ ٢١٠٥).

(٦) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٩/ ٤١٣).

(٧) جاء في المقامة الجاحظية: «إنَّ الجَاحِظَ في أَحَدِ شِقَّيِ البَلاَغَةِ يَقْطِفُ، وفِي الآخَرِ يقَفُ»، مقامات بديع الزمان الهمذاني، (٨٢).

(٨) مقامات بديع الزمان الهمذاني، (٨٢).

(٩) ذكر الحموي في ترجمته: «كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة»، خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، (١/ ٢١٩).

(١٠) معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب، (٥/ ٢١١٤).

(١١) ينظر: خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية، (١٨-١٩)، والرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، (٢٩٤-٣٠٧).

(١٢) ينظر: الرسائل الأدبية، ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، (٤٨٥).

(١٣) رسائل الجاحظ، (١/ ٨٩، ٢٣٢، ٢٨٣)، (٢/ ٥)، (٣/ ٥٤، ١١٣، ١٦٣)، (٤/ ٨٣، ١٩١).

(١٤) خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، (ت ٨٣٧هـ)، (١/ ٢١٩)، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، دار البحار، بيروت، الطبعة الأخيرة، ٢٠٠٤م.

(١٥) معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها، د. أحمد مطلوب، (٥٠٢).

(١٦) الكتاب، سيبويه، (١/ ٩٩)، سيبويه (ت ١٨٠هـ).

(١٧) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، (ت ٣٩٥هـ)، (٤٨).

(١٨) ينظر: أسلوبية السؤال، (٤٨- ٥٢).

(١٩) السؤال البلاغي: الإنشاء والتأويل، بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، (١٠).

(٢٠) الحيوان، (٤/ ٧٤).

(٢١) جماليات السؤال والجواب، عز الدين إسماعيل، (١٤-١٥).

(٢٢) جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانس روبيرت ياوس، (١٣٤).

(٢٣) ميتولوجيا الواقع، عبد السلام بنعبد العالي، (٩٢)، ولمزيد من التفصيل، ينظر: أسئلة الكتابة، موريس بلانشو، (٩).

(٢٤) اختلف في نسبة البيت، ونسب إلىٰ الأبيوردي، في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، (ت ١١١١هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.

(٢٥) محاورات مع النثر العربي، د. مصطفىٰ ناصف، (٩٨).

(٢٦) قال فيها: «قد قرأت كتابك ومدحتك أخلاق الكتّاب وأفعالهم، ووصّفك فضائلهم وأيّامهم، وفهمته....». رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٢/ ١٨٧).

(٢٧) جاء فيها «عصمنا الله وإيّاك من الشّبهة، وأعاذنا وإيّاك من زيغ الهوىٰ، ومضلّات المنىٰ، ووهب لنا ولك تأديبا مؤدّيا إلىٰ الزّيادة في إحسانه، وتوفيقا موجبا لرحمته ورضوانه. وقد كان كتابك يا ابن أخي – وفّقك الله – ورد عليّ، تصف فيه فضيلة الظّهور وصفا يدلّ علىٰ

شغفك بها...». رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١٦٩).

(٢٨) جاء في صدرها: «قد قرأت كتابك وفهمته، وتتبعت كل ما فيه واستقصيته، فوجدت الذي ترجع إليه بعد التطويل، وتقف عنده بعد التحصيل، قد سلف القول منا في عيبه، وشاع الخبر عنا في ذمه، وفي النصب لأهله، والمباينة لأصحابه...». رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ٦٩).

(٢٩) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (١/ ٢٢٧).

(٣٠) قال فيها: «أما بعد فإن جماعات أهل الحكمة قالوا: واجب علىٰ كل حكيم أن يحسن الارتياد لموضع البغية، وأن يتبين أسباب الأمور، ويمهد لعواقبها. فإنما حمدت العلماء بحسن التثبت في أوائل الأمور، واستشفاقهم بعقولهم ما تجيء به العواقب....، وإني قد عرفتك -أكرمك الله - في أيام الحداثة، وحيث سلطان الهوىٰ المخلط للأعراض أغلب علىٰ نظرائك...». رسائل الجاحظ، الجاحظ، (١/ ٤١).

(٣١) قَالَ الْأسود بن يعفر: «لعمرك مَا أَدْرِي وَإِن كنت داريـًا...»، وقال عمر بن أبي ربيعَة: «لعمرك مَا أَدْرِي وَإِن كنت داريـًا...». خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (١١/ ١٢٢).

(٣٢) لن تتكلم لغتي، عبد الفتاح كيليطو، (٣٨).

(٣٣) أسئلة الكتابة، موريس بلانشو، (١١).

(٣٤) البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، محمد علي القارصي، (٣٩٩).

(٣٥) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٣).

(٣٦) السابق، (٣/ ٢٢).

(٣٧) نفسه، (٣/ ٧).

(٣٨) دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، د. محمد محمد أبو موسىٰ، (٢١٧).

(٣٩) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٣).

(٤٠) السابق، (١/ ٣٣٦).

(٤١) نفسه، (٣/ ٣).

(٤٢) بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، (٢١٤).

(٤٣) ينظر: شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، (٢/ ١٥٨).

(٤٤) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٣).

(٤٥) السابق، (٣/ ٣).

(٤٦) نفسه، (١/ ١٧٧).

(٤٧) مقالات العلامة الدكتور/ محمود محمد الطناحي، (٢/ ٥٢٦).

(٤٨) نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا، د. أمجد الطرابلسي، (١/ ١٢٠).

(٤٩) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١٠٩، ١١٠، ١١٤).

(٥٠) السابق، (٤/ ١٠٩).

(٥١) نفسه، (٤/ ١٠٩).

(٥٢) نفسه، (٤/ ١٠٩).

(٥٣) نفسه، (٤/ ١١٤).

(٥٤) نفسه، (٤/ ١١٠).

(٥٥) مقالات العلامة الدكتور/ محمود محمد الطناحي، (١/ ٢٦٠).

(٥٦) يلقب بالجاحظ، وأيضًا بالحدقي: استأذن الجاحظ والسكاك علىٰ رئيس، فقال الخادم: «الجاحد والشكاك بالباب، فقال: هما من أسماء الزنادقة، فقال له الجاحظ: قل الحدقي، فولىٰ وهو يقول: الحلقي، فقال: ويحك! ارجع إلىٰ الجاحد». ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، الزمخشري، (٢/ ٤٨٠).

(٥٧) مقدمة البخلاء، الجاحظ، (٨).

(٥٨) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، (١١١).

(٥٩) ينظر: السابق، (١١١).

(٦٠) ورد في سير الأعلام أنه «قال فِي مَرَضِهِ لِلطَّبِيْبِ: اصْطَلَحَتِ الأَضْدَادُ عَلَىٰ جَسَدِي، إِنْ أَكَلْتُ بَارِداً، أُخِذَ بِرِجْلِي، وَإِنْ أَكَلْتُ حَارّاً، أُخِذَ بِرَأْسِي». سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٩/ ٤١٣).

(٦١) تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، (٢٨٠).

(٦٢) السابق، (٢٨٢).

(٦٣) محاورات مع النثر العربي، د. مصطفىٰ ناصف، (٣٦).

(٦٤) محاورات مع النثر العربي، د. مصطفىٰ ناصف، (٧٩).

(٦٥) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ٢٦١).

(٦٦) السابق، (٤/ ٢٦٢-٢٦٥).

(٦٧) نفسه، (٤/ ٢٦٣).

(٦٨) شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك، ابن عقيل، (١/ ١٠٦).

(٦٩) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ٢٦١).

(٧٠) السابق، (٤/ ٢٦١).

(٧١) تاريخ الأدب العربي: الأعصر العباسية الأدب المحدث: إلىٰ أواخر القرن الرابع الهجري ١٣٢-٣٩٩هـ، عمر فروخ، (٣٠٧).

(٧٢) الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، (٥٦٢).

(٧٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، (١٥٥).

(٧٤) أسئلة الكتابة، موريس بلانشو، (١١).

(٧٥) السابق، (١٢).

(٧٦) التكوثر: تدلّ علىٰ التفرّع والبناء، استقيت كلمة (تكوثر) من كتاب طه عبد الرحمن، ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، (٢١-٣٠).

(٧٧) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٣).

(٧٨) السابق، (٣/ ٢٢، ٢٣).

(٧٩) نفسه، (٣/ ٢٣).

(٨٠) نفسه، (١/ ١٧٧).

(٨١) نفسه، (١/ ١٧٧).

(٨٢) خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية، د. محمد مشبال، (٢٤٧).

(٨٣) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (١/ ١٧٧).

(٨٤) فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية – تداولية، باشا العيادي، (٢١١).

(٨٥) السابق، (٢١١).

(٨٦) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (١/ ١٧٩، ١٨٠).

(٨٧) نفسه، (١/ ١٩٣).

(٨٨) نفسه، (١/ ١٩٢، ١٩٣).

(٨٩) خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية، د. محمد مشبال، (٢٦٢).

(٩٠) السخرية في أدب الجاحظ، د. علي البوجديدي، (٣٠٢).

(٩١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (١/ ٢٢٥).

(٩٢) السابق، (١/ ٢٢٦).

(٩٣) نفسه، (٤/ ١١٠).

(٩٤) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١١٣).

(٩٥) السابق، (٤/ ١١٤).

(٩٦) ينظر: نفسه، (٤/ ١١٤ – ١٤٧).

(٩٧) نفسه، (٤/ ١٠٩).

(٩٨) نفسه، (٤/ ١٤٦).

(٩٩) نفسه، (٤/ ١٤٧).

(١٠٠) نفسه، (٤/ ١٤٦).

(١٠١) نفسه، (٤/ ١٤٦).

(١٠٢) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٢/ ٣٨٥).

(١٠٣) السابق، (٤/ ١٠٩).

(١٠٤) نفسه، (٤/ ١٠٩).

(١٠٥) نفسه، (٤/ ١١٠).

(١٠٦) نفسه، (٤/ ١٠٩).

(١٠٧) نفسه، (٤/ ١٠٩).

(١٠٨) لسان العرب، (١٥/ ٤٥٤).

(١٠٩) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١٠٩، ١١٠).

(١١٠) ينظر: رسائل الجاحظ، (٤/ ١١٥، ١١٦، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٣، ١٤٦).

(١١١) وردت في رسائله، رسائل الجاحظ، (٤/ ١٢٤).

(١١٢) السابق، (٤/ ١٤٧).

(١١٣) نفسه، (٤/ ٢٧٤).

(١١٤) نفسه، (٤/ ٢٧٦).

(١١٥) نفسه، (٤/ ٢٨٠).

(١١٦) نفسه، (٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(١١٧) الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، (٣٢٢).

(١١٨) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١٠٩).

(١١٩) السابق، (٤/ ١٠٩).

(١٢٠) نفسه، (٤/ ١١٠).

(١٢١) نفسه، (٤/ ١١٤).

(١٢٢) هذا ما رآه شوقي ضيف على حد تعبير د. محمد مشبال، ينظر: البلاغة والسرد: جدل

التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، د. محمد مشبال، (١٦١)، والفن ومذاهبه في النثر العربي، (١٦١).

(١٢٣) الكافية في علم النحو، ابن الحاجب، (٤٢).

(١٢٤) الاسم والاسمية والأسماء في اللغة العربية: مقاربة نحوية عرفانية، (١٦٥).

(١٢٥) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٢٠، ٢١).

(١٢٦) السابق، (٣/ ١٧).

(١٢٧) فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية – تداولية، باشا العيادي، (٢١٣).

(١٢٨) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١٣٩).

(١٢٩) السابق، (٤/ ١٤١، ١٤٢).

(١٣٠) نفسه، (٤/ ١٤٣).

(١٣١) نفسه، (٤/ ١٤٦).

(١٣٢) نفسه، (٤/ ١٤٥).

(١٣٣) نفسه، (٤/ ١٤٧).

(١٣٤) البلاغة والخطاب الديني: مناظرة الباجي أنموذجًا، الإمام العزوزي، ضمن كتاب بلاغة الخطاب الديني، (٢٥٨).

(١٣٥) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١١١).

(١٣٦) السابق، (٤/ ١١٢، ١١٣).

(١٣٧) نفسه، (٤/ ١١٦).

(١٣٨) نفسه، (٣/ ١٥).

(١٣٩) نفسه، (٣/ ١٥).

(١٤٠) ينظر: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، (٥٤٠-٥٤١).

(١٤١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٣).

(١٤٢) السابق، (٣/ ٣).

(١٤٣) نفسه، (٣/ ٦، ١٦).

(١٤٤) نفسه، (٣/ ١١).

(١٤٥) ينظر: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، (٥٣٩).

(١٤٦) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ١٦).

(١٤٧) السابق، (٣/ ٣، ٦).

(١٤٨) نفسه، (٣/ ١١).

(١٤٩) نفسه، (١/ ١٧٨).

(١٥٠) نفسه، (٤/ ١٠٩).

(١٥١) نفسه، (٤/ ١٢١).

(١٥٢) شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، (١/ ٢٤٠).

(١٥٣) السابق، (٥/ ١١٣).

(١٥٤) دلائل الإعجاز، الجرجاني، (٨٢).

(١٥٥) الرعة: الورع والكف عن السوء والقبيح.

(١٥٦) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٧، ٨).

(١٥٧) السابق، (٣/ ٧، ٨).

(١٥٨) ينظر: السابق، (١/ ٣٣٧- ٣٧٣).

(١٥٩) نفسه، (١/ ٣٣٦).

(١٦٠) ديوان المتنبي، (١٣٥).

(١٦١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ١٦).

(١٦٢) نفسه، (٣/ ٢٠، ٢١).

(١٦٣) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، (٤٣٧).

(١٦٤) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٢٠).

(١٦٥) السابق، (٣/ ٢٠).

(١٦٦) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، (٤٣٨).

(١٦٧) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٢٠).

(١٦٨) السابق، (٣/ ٢١).

(١٦٩) هذا القول قول برليمان وتيتيكاه نقلاً من الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، (٤٤٠).

(١٧٠) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، (٢/ ٥١)، والحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، (٤٣٤- ٤٤٢).

(١٧١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، السيوطي، (١/ ١٣٦).

(١٧٢) البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، (١/ ١٣٤)، ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة)، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي.

(١٧٣) شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلىٰ اليوم، (٣٨١).

(١٧٤) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، (٣٣٢).

(١٧٥) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ١٢).

(١٧٦) السابق، (٣/ ١٧).

(١٧٧) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٤).

(١٧٨) السابق، (٣/ ٨).

(١٧٩) نفسه، (٣/ ٩).

(١٨٠) نفسه، (٣/ ١١).

(١٨١) نفسه، (٣/ ١٨).

(١٨٢) نفسه، (٣/ ٢٢).

(١٨٣) نفسه، (٣/ ٢٢، ٢٣).

(١٨٤) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسراره البلاغية، د. صبَّاح عبيد دراز، (٢٣)، وينظر: حاشية عبد الحكيم، (٣٣٤).

(١٨٥) السابق، (٩).

(١٨٦) التنبيه والإشراف، المسعودي، (١/ ٦٦)، وينظر: رسائل الجاحظ، الجاحظ، (١/ ٣٥١).

(١٨٧) ينظر: رسائل الجاحظ، الجاحظ، (١/ ٣٥١).

(١٨٨) السابق، (٤/ ١٢٥).

(١٨٩) نفسه، (٤/ ١٢٥).

(١٩٠) محاورات مع النثر العربي، د. مصطفىٰ ناصف، (٩٨).

(١٩١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١٣٢).

(١٩٢) السابق، (٤/ ١٣٢).

(١٩٣) نفسه، (٤/ ٢٧٥).

(١٩٤) نفسه، (٤/ ٢٧٤).

(١٩٥) نفسه، (٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(١٩٦) الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ، عباس أرحيلة، (١٣٦).

(١٩٧) في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية: الخطابة في القرن الأول نموذجًا، د. محمد العمري، (٩٠).

(١٩٨) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ١٥).

(١٩٩) السابق، (١/ ٢٠٤).

(٢٠٠) الجاحظ والأشكال التعبيرية في رسائل الجاحظ الأدبية، (١٤).

(٢٠١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١٢٩).

(٢٠٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، البخاري، (٣/ ٢٢).

(٢٠٣) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١١٠، ١٣٤).

(٢٠٤) السابق، (٤/ ١٢٢).

(٢٠٥) نفسه، (٤/ ١٤٣).

(٢٠٦) نفسه، (٤/ ١٣٢).

(٢٠٧) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (١/ ٤٨٨).

(٢٠٨) السابق، (١/ ٤٨٨).

(٢٠٩) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، (١/ ٣٧٥).

(٢١٠) ينظر: شعرية النص النثري: مقاربة تحليلية لمقامات الحريري، محمد عبد الجليل أبلاغ، (٧٣).

(٢١١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ١٩، ٢٠).

(٢١٢) الأمثال، ابن سلاّم (ت ٢٢٤هـ)، (١٢٦، ٢٤٨، ٢٦٤، ٣٠٣، ٣٦٨).

(٢١٣) استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، (٢/ ٣٢٩).

(٢١٤) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (١/ ١٨٦).

(٢١٥) السابق، (١/ ١٨٩).

(٢١٦) نفسه، (١/ ١٩٤).

(٢١٧) نفسه، (١/ ٢٠٥).

(٢١٨) نفسه، (١/ ٢٠٨).

(٢١٩) الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، (٤٣٦).

(٢٢٠) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: بحث في الأشكال والاستراتيجيات، د. علي الشبعان، (٣١٢).

(٢٢١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٤/ ١١٠).

(٢٢٢) السابق، (٤/ ١١٠).

(٢٢٣) نفسه، (٤/ ١٤٦).

(٢٢٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، (١٦٤).

(٢٢٥) في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية: الخطابة في القرن الأول نموذجًا، د. محمد العمري، (٨٢).

(٢٢٦) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ١٨).

(٢٢٧) السابق، (٣/ ٣، ٤).

(٢٢٨) أسرار البلاغة، الجرجاني، (١١٥).

(٢٢٩) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ١٦).

(٢٣٠) السابق، (٣/ ٢٠).

(٢٣١) أسرار البلاغة، الجرجاني، (١١٦).

(٢٣٢) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٢٠).

(٢٣٣) السابق، (٤/ ١٠٩).

(٢٣٤) نفسه، (٤/ ١١٢).

(٢٣٥) نفسه، (٤/ ١٤٤).

(٢٣٦) نفسه، (٣/ ٤).

(٢٣٧) نفسه، (٣/ ٥).

(٢٣٨) الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، (٥٦٢، ٥٦٣).

(٢٣٩) أسرار البلاغة، الجرجاني، (٩).

(٢٤٠) السابق، (٩، ١٠).

(٢٤١) السابق، (١٠).

(٢٤٢) أسرار البلاغة، الجرجاني، (١٠).

(٢٤٣) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٦، ٧).

(٢٤٤) السابق، (٣/ ٨).

(٢٤٥) يقول الجرجاني بشأن ذلك: «وربَّمَا طَمَسَ بكثرة ما يتكلَّفه علىٰ المعنىٰ وأفسده، كمن ثقَّل العروسَ بأصناف الحَلْي حتىٰ ينالها من ذلك مكرُوهٌ في نفسها...، وعلىٰ الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سَجَعًا حَسَنًا، حتىٰ يكون المعنىٰ هو الذي طلبه واستدعاه وسَاق نحوَه، وحتىٰ تَجِده لا تبتغي به بدَلاً، ولا تجِد عنه حِوَلاً». أسرار البلاغة، الجرجاني، (١١).

(٢٤٦) رسائل الجاحظ، الجاحظ، (٣/ ٣).

* * *

قائمة المصادر والمراجع

(١) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسراره البلاغية، د. صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمَّان، ط٢، ٢٠١٥م.

(٣) أسرار البلاغة، الجرجاني، قرأه وعلق عليه: أبو فهر/ محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط١، ١٤١٢هـ.

(٤) أسلوبية السؤال، عيد بلبع، رؤية في التنظير البلاغي، ط١، دار الوفاء، ١٩٩٩م.

(٥) الاسم والاسمية والأسماء في اللغة العربية: مقاربة نحوية عرفانية، توفيق قريرة، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، ط١، ٢٠١١م.

(٦) أسئلة الكتابة، موريس بلانشو، ترجمة: نعيمة بنعبد العالي، وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٤م.

(٧) الأعلام، الزركلي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.

(٨) الأمثال، ابن سلاّم (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٩) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلىٰ اليوم، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، منوبة، ط١، ١٩٩٨م.

(١٠) البخلاء، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ.

(١١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابىٰ الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

(١٢) بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(١٣) بلاغة الخطاب الديني، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

(١٤) البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، د. محمد مشبال، منشورات كلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ٢٠١٠م.

(١٥) تاريخ الأدب العربي: الأعصر العباسية الأدب المحدث إلىٰ آخر القرن الرابع الهجري ١٣٢-٣٩٩هـ، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.

(١٦) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراق، ط٢، ١٤١٩هـ.

(١٧) تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

(١٨) التنبيه والإشراف، المسعودي، المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د.ت.

(١٩) الجاحظ والأشكال التعبيرية في رسائل الجاحظ الأدبية، حوليات الجامعة التونسية، جامعة منوبة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات،ع ٢٩، ١٩٨٨م.

(٢٠) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٢١) جماليات السؤال والجواب، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م.

(٢٢) جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانس روبيرت ياوس، تقديم وترجمة: د. رشيد بنحدو، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

(٢٣) حاشية عبد الحكيم، د. صباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢٤) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

(٢٥) الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، مجموعة من المؤلفين، تحرير وإشراف/ د. حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

(٢٦) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: بحث في الأشكال والاستراتيجيات، د. علي الشبعان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

(٢٧) الحيوان، الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٢٨) خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، الطبعة الأخيرة، ٢٠٠٤م.

(٢٩) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٣٠) خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٥م.

(٣١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، (ت ١١١١هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.

(٣٢) دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، د. محمد محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، مصر، ط٢، ١٤٠٨هـ.

(٣٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، قرأه مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ

(٣٤) ديوان شيخ شعراء العربية المتنبي، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، د. سعيد جودة السحار، وعبد العزيز جودة، ود. عبد العزيز شرف، مكتبة مصر، الفجالة، د.ت.

(٣٥) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، الزمخشري (ت ٥٨٣هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

(٣٦) الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.

(٣٧) رسائل الجاحظ، الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ.

(٣٨) السخرية في أدب الجاحظ، د. علي البوجديدي، تقديم: د. محمد مشبال، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠١٨م.

(٣٩) السؤال البلاغي: الإنشاء والتأويل، بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٧م.

(٤٠) سير أعلام النبلاء، الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ/ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٤١) شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك، ابن عقيل (ت ٧٦٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، ط٢٠، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٤٢) شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، قدم له: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.

(٤٣) شعرية النص النثري: مقاربة تحليلية لمقامات الحريري، محمد عبد الجليل أبلاغ، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢م.

(٤٤) فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية - تداولية، باشا العيادي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمَّان، ط١، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

(٤٥) الفن ومذاهبه في النثر العربي، أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (ت١٤٢٦هـ)، دار المعارف، القاهرة، ط١٣، د.ت.

(٤٦) في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية: الخطابة في القرن الأول نموذجًا، د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م.

(٤٧) الكافية في علم النحو، ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، تحقيق: الدكتور/ صالح عبد العظيم الشاعر، ط١، مكتبة الآداب – القاهرة، ٢٠١٠ م.

(٤٨) الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ، عباس أرحيلة، روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط١، الإصدار (٧٠)، أكتوبر، ٢٠١٣م، ذو القعدة ١٤٣١هـ.

(٤٩) الكتاب، سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

(٥٠) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، اعتنىٰ بالتصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ.

(٥١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م.

(٥٢) لن تتكلم لغتي، عبد الفتاح كيليطو، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

(٥٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

(٥٤) محاورات مع النثر العربي، د. مصطفىٰ ناصف، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (٢١٨)، فبراير، ١٩٩٧م.

(٥٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

(٥٦) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

(٥٧) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب، الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(٥٨) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ (قم)، ط١، ١٤١٢هـ.

(٥٩) معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها عربي- عربي، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٠م.

(٦٠) مقالات العلامة الدكتور/ محمود محمد الطناحي: صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(٦١) مقامات بديع الزمان الهمذاني، الهمذاني (ت ٣٩٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الأزهرية، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م.

(٦٢) ميتولوجيا الواقع، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١م.

(٦٣) نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا، د. أمجد الطرابلسي، مطبعة الجامعة السورية، ط٢، ١٣٧٦هـ.

❊ ❊ ❊